حدثني القرآن

■ اسم الكتاب: حدثني القرآن.

■ الجزء: الأول.

■ اسم المؤلف: د. عزة أبوغرسة

الترقيم الدولي: ردمك ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

رقم الإيداع: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ دار الكتب الوطنية بنغازي



هاتف: 218512617969+ ، موبايل: 218924769896+

إيميل: eshaabsci@gmail.com

حدثني القرآن

د. عزة أبوغرسة



دار ومكتبة الشعب
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم





بعد شكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أود أن أشكر الوالدة السيدة الفاضلة آمنة عمر بن حميدة على دعمها وتشجيعها ومساعدتها لي ببعض المعلومات التي أفادتني في تأليف الكتاب.

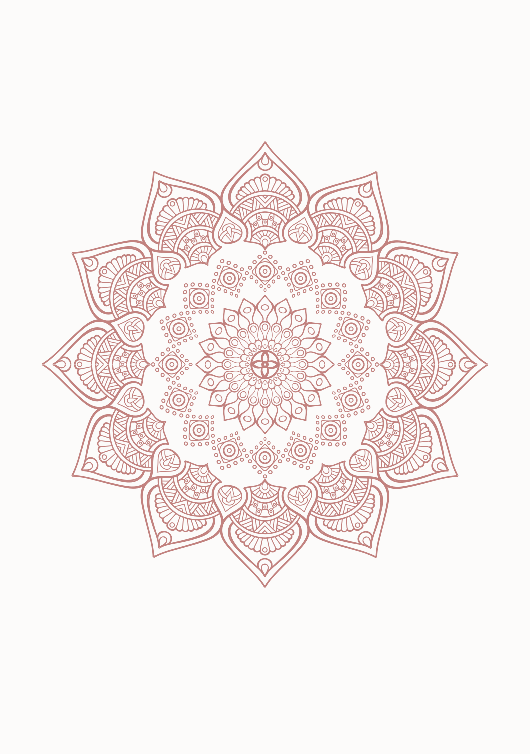
كما أشكر السيد رمضان معيتيق على التوجيهات التي قدمها كي يرى هذا الكتاب النور.

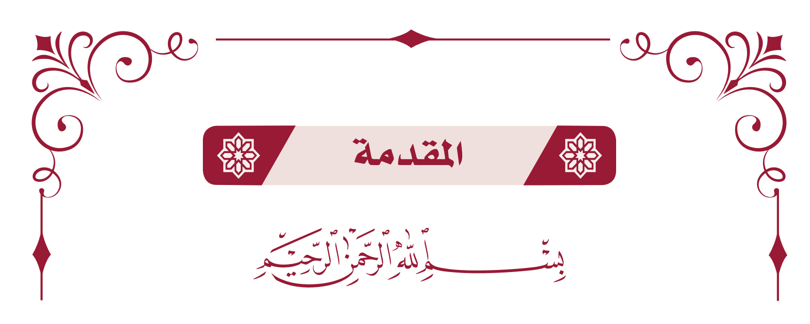
وأخيرًا أشكر القائمين على دار ومكتبة الشعب للطباعة والنشر والتوزيع على ما قاموا به من تعديلات وتجهيزات للكتاب ليظهر على هذه الصورة.



د. عزة أبوغرسة







الحَمـدُ لله، والصَّـلاةُ والسَّـلامُ على رَسـول الله، الحمدُ لله على نِعمة الإسـلام، الحَمدُ لله على نِعمـة القُرآن، وعلى نِعمة التَّمَعـُّنِ في آياته ومَعانيه؛ القُرآن الكريمُ هـو ثروةٌ حقيقيَّةٌ في يد المؤمِن، ومِن المؤسـف ألَّا يتمَّ اسـتثمار هذا الكنـزِ فيما ينفعُ النَّاسَ، مِن المؤسـف أنْ يسـتمرَّ الناس في حِفظِه وترديده دونَ العملِ به، أو فهْم معانيه.

مـن المؤسـف ألا يتمكَّن المؤمـنُ مِن ربْـط تفاصيل حياتِه بآيـات القُـرآن، والفاجعة أنَّ هناك مطالبـاتٍ بفصْلِ الدِّين عن الدولة، بمعنـى أنْ ينحصرَ الدِّين في المسـاجد وأماكن العبادةِ فقط، كما هـو الحال في بعض الدِّيانات الأخـرى كالنَّصرانيَّة؛ حيث لا نرى القسِّيسين والراهبات في أي مكان خارج الكنيسة.

ولكن هذا الأمر لا يمكن تطبيقه في الإسـلام؛ لأنَّ الدِّينَ هو الحياةُ، والقرآنَ هو منهج هذه الحياة، ولا حياةَ بدون دينٍ، ولا يرتـاح المؤمـن في حياته بعيداً عـن الدين، وكلُّ الذيـن تقرّبوا إلى الله حدَّثونا عن شـعور الاطمئنان والسَّـلام النفسـيِّ الذي

اعتراهــم بعد التَّوبــة والتَّدين والابتعادِ عــن المعاصي، كما أنَّ هناك مَن يَتحدَّثُ عن مشــاعر السَّعادة التي انتابتْه عندما كانت تَستَوْقِفُه آيةٌ معيَّنة أثناء تلاوةِ القُرآن، وتجعلُه يشعرُ أنَّها مُوَجَّهةٌ إليه بشــكلٍ مُباشــرٍ، وأنَّها تخاطبه بشــأنِ حاله الــذي يمرُّ به في ذلك الوقت، وهذه معجزةُ القُرآن.

ومِــن رَوعة القُرآن كذلك أنَّه صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنَّه دائمــًا يواكب مُجرياتِ الأحداث عــبرَ العُصور، ولا يُمكنُ أنْ يقول أحدٌ: إنَّ القرآنَ موجَّهٌ لأحداث قديمةٍ عفى عليها الزمنُ، ولــم يَعُدْ لها وجودٌ، ولذلك لم يَعد لتلك الآياتِ اســتعمالٌ في العصر الحديث، فلا زال قومُ عادٍ موجودين، ولا زال قوم لوط موجوديــن وأهل ســبأ، وفتية الكهــف، وأصحــاب الجنة، بل حتــى فرعون وقارون والنُّمرود لا يزالــون حولنا وإن اختلفت صُوَرُهم، ولكنَّ الجوهرَ واحد، والتاريخ دائمــًا يُعيدُ نفسه.

كلُّ هــذه الحقائــق تســاعدنا علــى فَهــم سُــنَّة الله في كونــه، وتُمكِّنُنــا مِن معرفةِ مَصير مَن يتَّجه توجُّهــًا مُعيَّنــًا في حياته؛ كما قال الشاعر:

وَلَسْــتُ بِعَــلَّامِ الغُيُــوبِ، وَإِنَّمَا ··· أَرَى بِلِحَاظِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعُ[1]

(1) للشاعر محمود سامي البارودي، انظر ديوانه قافية العين.

الحمـدُ لله، لاحظـتُ مؤخَّراً إقبـال فئة الشَّـباب على حِفْظِ القُـرآن الكريـم، وعلى مُسـابقات تِـلاوة القرآن، كمـا ذكرتُ أعلاه؛ فإنَّه أمر جميلٌ جداً أنْ نَحفظَ القُرآن، ولكنَّ الأجملَ أنْ نَعملَ بهِ: نَدرُسَـه، ونَتدارَسَهُ، ونَستنبطَ منه الدُّروس التي تفيدُنا في حياتنا؛ فالقرآن منهجٌ شـامل كاملٌ يحوي كلَّ أوجه المعرفة وعلوم الحيـاة، هو إعجازُ اللهِ الذي يَقـفُ أمامه علماءُ الفيزياء والكيميـاء وعلـومِ الفضـاء والفلسـفة وعلم النفـس وغيرهم عاجزين أمام الآيات التي تتحدَّث عمَّا يصل إليه العِلمُ الحديث مِن اكتشافات ومفاجآتٍ.

فكَمْ من عالِمٍ هداه الله إلى طريق الحقِّ، ودخلَ الإسـلامَ بعدَ أنْ شاهدَ معجزاتِ الله في الكون، ولكن يقابل هؤلاء مجموعاتٌ مِن المسـلمين الذين يختارون التوجُّه العلمانِيَّ، ويُصرُّون على فصْـلِ الدِّيـن عن الدَّولـة، مُعلِّليـنَ تَصرُّفاتهـم أنَّ الدِّيـنَ مكانُه المسـجدُ فقط، وقـدْ تحدَّثَ القـرآن عن هـذا الأمر: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمـد: 38]. الكارثـة أنَّ الأمـر لم يتوقـف هنا، بـل إنَّ مَن يُعـارض هذه التصرُّفـات يتمُّ إلصـاقُ تُهمـة (متطرف/ إرهابـي) لـه، فأيُّ شـخص يتكلَّمُ عن الدِّيـن يتمُّ اتِّهامُـه بتبَنِّي التَّفكير المُتطـرِّف، حتَّى أضحى الكلام في الدِّيـن شُـبهةً لصاحبـه، وبهذا يضيـع كَنزُ المعـاني في القرآن،

ويُختَصَرُ تَداولُه في حِفظِ الآيات للقيامِ بفَرضِ الصَّلاة مع فقدان التدبـر في معانيها والتفكُّر فيها؛ فلا يتحقق الخشـوع في الصلاة، وهو صفـة لصلاة المؤمنيـن المفلحين؛ حيـث يقول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1 - 2].

هـذا الكتاب يُعـدُّ محاولـةً متواضعة منِّي لاسـتخلاص ما يمكـن فَهمُه مِـن القُرآن مِن معـانٍ وأفكار مسـتوحاةٍ مِن واقع حياتنا وتجاربنا مع الآخرين. أسأل الله أنْ يوفِّقَني في سرْدِ شرحٍ ميسَّـرٍ لما يُمكنُنِي فيه مِن الجود بأفكارٍ ومواضيعَ تُهِمُّ القارئ، وتُمكِّنُه من الاستفادة منها في تعامله مع الآخرين.

الحمد لله الذي شـغلني بالتدبُّر في القرآن، ولم يشغلْني بأمرٍ آخرَ لا نفعَ منه لا لي ولا لغيري.

تحياتي/

الدكتورة عزة أبو غرسة

الحديث الأول | عُمر والجبل

تعلَّمنا أنَّ الجبالَ مثالُ القوَّة، والمتانة، والصلابة والأصالة، تعلمنا أن نُذكِّر أنفسنا أنْ نكونَ كالجبال، وأنْ نُعلّم أبناءَنا أن يكونوا صامدين كالجبال، فدائمًا كنا نرى هذا الجانب من الجبال، ولم نفكر يومًا أن نبحث عن الخصائص الأخرى التي تُكمِّل الشخصية الجبليَّة، وهنا يأتي دور القرآن الكريم في سَرْدِ الصفات التي يستطيع الإنسانُ أنْ يستخلِصَها من الجبل، فلنتعرفْ على هذه الصفات، ونتأملْ روعةَ إبداعِ الخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أثناءَ سرْد صفاتِ الجبلِ ستُلاحظون مدى التشابهِ بينه وبين أميرِ المؤمنين عُمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في اجتماعِ صفاتِ الحزْمِ والعطفِ والتواضعِ فيه، بالإضافة إلى مخافةِ الله تعالى.



الشِّدَّةُ والحزْمُ

تُعتبرُ الجبالُ إحدى رموزِ القوَّةِ والشموخِ، وقدْ وردتْ في القرآن الكريم كتشبيهٍ لمستوى ارتفاعِ الموجِ الذي تمايلَ بسفينةِ نوحٍ ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: 42]، وعلى نفسِ السياقِ وردَ تشبيهُ ارتفاع مياهِ البحرِ بالجبال عندما ضربَ النبيُّ موسى البحرَ بعصاه، وانفلقَ البحرُ إلى فرقيْن مرتفعيْن ارتفاعًا

شاهقًا كارتفاع الجبالِ ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: 63]، والطود هو الجبل.

وفي سورةِ لقمانَ نلاحظُ استخدامَ نفْسِ التشبيهِ، أي تشبيهِ الأمواج العاليةِ بالجبال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ ﴾ [لقمان: 32]، والظلل هي الجبال والغمام؛ حيث يتشابه الجبل والسحاب في خاصية توفير الظل، ومنها أيضًا قوله تعالى ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: 171]، كما أنَّ القرآنَ شبّهَ كميَّة البرَد الكبيرةِ التي تنزِلُ من السماء بالجبال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 43] كنايةً عن الحجم الكبير للبرَد عندما يتجمعُ في كتلة واحدةٍ كبيرةٍ كالجبلِ.

وفي قصَّة سيدنا نوحٍ رفضَ ابنُه أنْ يركبَ في السفينة مع أهله، واختارَ أن يأويَ إلى الجبل ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود: 43] في دلالةٍ على ارتفاع الجبل، وعلى غرارِ هذا الوصفِ يقول سبحانه مُبَيِّنا أنَّ الإنسانَ مهما بلغَ الذروة فلنْ يصلَ إلى ارتفاع الجبال ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء: 37]. ومنها أيضًا قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: 27]، وهنا نرى كيفَ يصفُ القرآنُ الجبلَ بأنه كبيرٌ ومرتفعٌ في شموخ، وهذا يجعلُه مصدراً للظِّلِّ، ويجعلُ الأمواجَ لا تصلُ إليه.

ويقـولُ تعالـى ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجـر: 19]، وتتكـررُ الآياتُ التي يشارُ فيها إلى إلقاء اللهِ سبحانَه للجبال في الأرض:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: 10].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [ق: 7].

ونلاحظُ استخدامَ الفِعلِ (ألقى) في إشارة إلى ثِقَلِ الجبال، وعَظمةِ حجْمِها، واللهُ أعظمُ. وهناك إشاراتٌ أخرى على عَظمة الجبال في القُرآن، فمثلاً في سورة النبأ تُوصَف الجبالُ بالأوتاد ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7] أي أنَّ الجبالَ هي التي تمسكُ الأرضَ؛ لئلا تضطربَ وتميدَ بقاطنيها، وهو نفسُ المعنى الذي نستشفُّه من وصْف الأهرامات بالأوتاد ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10]. وفي سورة الغاشيةِ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: 19] يستخدم القرآن الفعل (نُصبت] لتوضيح كيف أن الجبال وُضِعت، وساعدتْ في ثبات الأرضِ واستقرارها حسبَ التفسيرِ الميسرِ للآية. هذه الآياتُ تكشفُ لنا عن بعض صفاتِ الجبل، وهي السموُّ، والثباتُ، والركازةُ، والرجاحة، والشموخُ.

هذه الصفةُ الأولى التي بالإمكان اقتباسها من الجبل، وهي أنْ يكونَ المرء ذا قدرٍ ومكانةٍ كبيرةٍ، ليس بالضرورةِ أنْ يكونَ

ذا مالٍ، ولكنَّ المكانةَ تتأتَّى من الاعتداد بالنفس، والسموِّ بها، والمحافظةِ على الكرامةِ والكبرياءِ.

كان عُمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكنَّى بأبي حفْصٍ، والحفصُ هـو الشِّـبلُ ابنُ الأسـدِ، دلالةً على قـوةِ الفـاروق وجرأته التي ظهرتْ جليَّةً في غزوةِ بدرٍ، وجاءَ في كتاب «أصحاب الرَّسـول» (المصري، 2002م) سردٌ لبعض صفاتِ الفاروقِ التي صُنِّفت إلـى صنفيْن: صفاتٍ جسـديةٍ، وصفـاتٍ أخلاقيـةٍ. من ضِمن صفاتِ الفاروقِ الجسديةِ أنَّه كان طويلَ القامةِ، متينَ البِنْيَة، كما أنَّـه كان يطأُ الأرضِ وطئًا شـديداً، وهنا نستشـعرُ معانيَ الفِعل (ألقى) المستخدمِ عند وصفِ الخالقِ للجبال في القرآنِ.

أمَّـا عـنْ صفاته الأخلاقيـةِ، فقـدْ كانَ الفاروقُ يتمتَّـع بقوَّةٍ وحِكمةٍ شديدةٍ، وكانَ يتميَّزُ بالفِطنةِ العسكريَّةِ والسياسية التي جعلـتْ منه شـخصيَّةً قياديَّةً تمكَّنت من بَسْـطِ سـيطرتها على البلاد الإسـلامية آنذاك. إضافةً إلى ذلك، كانَ الفاروقُ شـديدَ الصَّلابـة والصرامـة والصراحة، وكانَ دائـمَ التعامل بجديَّةٍ في كلِّ الأمور، وهذا ما أكسـبَه الهيبةَ والوقارَ بينَ الناس، كلُّ هذه الصفاتِ تُذكِّرُنا بصفاتِ الجَبل التي تمَّ سردُها أعلاه، وتجعلُنا نـرى الرابطَ الوثيقَ الـذي يربطُ الجبالَ بشـخصِ الفاروق ذي الأنَفةِ والشموخِ والإباءِ.

التَّوَاضُعُ وَتَسْخِيرُ النَّفْسِ لِخِدْمَةِ الْغَيْرِ

صفاتُ الشِّـدَّة والقوَّة التي تتمتعُ بها الجبالُ لا تعني الغرورَ والتعجـرفَ، فكمـا وضحت الآيـات أعلاه أنَّ الجبـلَ معَ كلِّ شـموخه فهـو يُمِدُّنا بالظـلِّ، وهناك آياتٌ أخرى تـدلُّ على أنَّ التواضعَ هو أحدُ صفاتِ الجبل، فهناك العديدُ من الآياتِ التي توضحُ أنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - سخَّرَ الجبالَ، رغمَ عظمتِها، لسائر مخلوقاتِه من البشـر وغيرهِم. يقولُ تعالى في سـورة الأعراف ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعـراف: 74]، ويقـول ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد: 3]، ويوجدُ المزيدُ من الآيات المشابهة:

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 82].

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: 68].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: 81].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: 31].

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: 149].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ [النمل: 61].

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ [فصلت: 10].

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: 32].

صفـاتُ الجبـل هـذه تجعلُنـا نسـتحضرُ شـخصيةَ الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ مـن جديـد، ومـن جديـد نقتبسُ الشـرحَ مـن كتـاب «أصحـابِ الرسـول» (المصـري، 2002م)، فمـع كلِّ الشِّـدة والحَـزْم الـذي كانَ يتَّصفُ به سـيدُّنا الفاروقُ، فإنَّـه كانَ يتمتعُ بقلب رحيم، ونفسٍ طيبةٍ ودودةٍ، كان خدوماً يطوفُ بين النَّاس، ويتفقَّدُ أحوالَ المسلمين، ويمدُّ يدَ العَوْنِ لكل مَن يحتاج عَونـًا، ويسـخِّرُ نفسَه ومالَه لخدمة الجميع. ولعلَّ القراءَ يعلمون بقصة السيدةِ التي سمِعَها الفاروقُ مِن وراء الجدارِ تشتكي ألَمَ الوِحدة والاشتياقِ لزوجها الجنديِّ الغائبِ في الجبهة، فأصدرَ الفاروقُ أوامـرَه أن لا يغيبَ الجنديُّ عن أهله مدةً تزيد عن أربعة أشـهرٍ (المصري، 2002م)، وكذلك قصةُ القافلة التي تطوعَ الفاروقُ لحراسـتها عندما كان يتجوَّل ليـلاً. وغيرها العديدُ من القصص في حياة الفاروق التي لا يتسـعُ المجالُ هنا لسردها كلها، ولكنَّها تعكسُ جوانبَ براقةً جداً من شـخصيته، وسعيِه لبناء مؤسسات الدولة، وتأسيس بيتِ مال المسلمين، ونظام القضاءِ والدواوين، وغيرهـا من الإنجازاتِ التي تمدنا بالطَّاقة الإيجابيَّة، وتشـجِّعُنا على الاقتداء به والسَّير علي دَرْبِه.

الجاهِزِيَّةُ للتَّغيير

وحيثُ إنَّ دوامَ الحال من المحال، وكلُّ ما تمَّ نَقَصَ، والكمالُ لله وحده، والتفرُّدُ المطلقُ هو صفةٌ إلهيَّةٌ صِرفةٌ، فإنَّه من الطبيعي أنْ نشهدَ صفاتِ التغييرِ والتنوعِ في الجبال مذكورةً في القرآن؛ فمثلاً في سورة فاطر يذكرُ الله سبحانه أنواعًا متعددةً للجبال ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: 27]، وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: 88]. ونعودُ لرَبْطِ هذه الصفاتِ مع صفات الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فكما سردنا أعلاه قامَ الفاروقُ بإجراء تغييرٍ إداريٍّ في نظام الجيش، وقامَ بتغيير مدةِ مرابطةِ الجنود في الجبهة؛ لكي يجاري حالَ أهاليهم واحتياجاتِهم.

وعلى نفس السِّياق، نَسرُدُ قصَّةً أخرى وهي قصة الرَّضيع الذي سمِعَه الفاروق يبكي، وطلبَ مِن أُمِّه أنْ تُسكِتَه، فقالت: إنَّها تريد فطامَه قبلَ أوان الفطامِ حتى يحظَى بحظِّه مِن فرْضِ بيتِ مال المسلمين، وذلك لأنَّ أميرَ المؤمنين جعلَ هذا الفرضَ للمفطومين فقط؛ عندها أخذَ الفاروقُ يردِّدُ «بُؤسًا لِعُمرَ، كم قَتَلَ مِن أولادِ المسلمين!»، وأصدرَ أوامره بأنْ يفرض لكلِّ مولودٍ في الإسلام منذُ ولادته (المصري، 2002م).

ومثالٌ آخرُ يوضِّح مرونةَ الفاروق عُمر مع متطلباتِ المجتمع، وعدمَ تصلُّبِه في وضْعِ الحزْمِ المفرِطِ، وعدم تعنُّتِهِ بالرأي، واستفرادِه بالصَّوت الواحدِ هي القصَّة التي قالَ فيها عبارتَه الشهيرة «أَصَابَتِ امْرَأَةٌ، وَأَخْطَأَ عُمَرُ»، القصةُ باختصارٍ أنَّ سيدنا عُمر حدَّد صداقَ النِّساء بمبلغ وقدره أربعمائة درهم، فما دون ذلك؛ عندها راجَعَتْه امرأةٌ من قريش، وذكَّرَتْه بالآية ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾ [النساء: 20]؛ فاستغفر عُمر ربه، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدُقَاتِهِنَّ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ» (البخاري 8/ 9).

بالطبعِ اختلفتِ الرواياتُ حول تفاصيلِ القصَّةِ، ولكنَّ هذا ليس ضمنَ نقاشنا للموضوع، ما يُهِمُّنا في القصَّة أنَّ سيدَنا عُمر رغمَ صلابته وثباتِ مواقفه، إلا أنَّه كان يتمتعُ بالمرونة والقدرةِ على مجاراةِ الأحداثِ برجاحة عقلٍ وحكمةٍ تماماً كالجبال التي تمرُّ مَرَّ السحاب. وهنا أطلُبُ من رجالنا أنْ يلاحظوا أنَّ اعترافَ الفاروقِ برأيِ المرأة الصائبِ لم ينتقصْ من رجولتِه، ولا من هيبتِه، ولا قَدْرِه أمامَ الناس، ولم يشعرْ بالإهانةِ أنَّ امرأةً صححَتْ له رأيَه على الملأِ وهو أميرُ المؤمنين، فقط تأمَّلوها، وقولوا: ماتَ عُمر!

الشيءُ مِن مأتاهُ لا يُستغرَبُ، فسيدنا عُمر لم يغضبْ من زوجتِه عندما رَاجَعَتْهُ رَافِعَةً صَوْتَهَا، ولمْ يعتبرْ هذا الأمرَ إهانةً لرُجولته، أو نشوزاً منها، بل برَّرَ تصرُّفَها قائلاً: «تَحَمَّلَتْنِي، غَسَلَتْ ثِيَابِي، وَبَسَطَتْ مَنَامِي، وَرَبَّتْ أَوْلَادِي، وَنَظَّفَتْ بَيْتِي، تَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَمْ يَأْمُرْهَا اللهُ بِهِ، وَتَحَمَّلَتْ كُلَّ ذَلِكَ، أَفَلَا أَتَحَمَّلُهَا إِنْ رَفَعَتْ صَوْتَهَا؟» (تفسير القرطبي]. لا أعتقدُ أنَّ أحداً من الأزواجِ أو حتى غير المتزوجين في عصرنا الحالي أدرى من سيدنا عُمر بأمور الشرعِ والدِّين، ومع ذلك فالكثيرون منهم اليوم يُؤمنون إيمانًا راسخًا أنَّ أعمالَ البيت هي فرضُ عينٍ على المرأة، وأنَّها تأثمُ وتنشزُ إنْ قصَّرَت في هذه الأمور! لا عجبَ، فليس في القوم عُمر!

خشيةُ الله

الصفةُ الأخيرةُ التي نتداولَها عن الجبال، والتي تشتركُ فيها مع سيدنا عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هي خشيةُ اللهِ، وهناك الكثير من الآيات التي نَستَدِلُ بها على ذلك، ففي سورة الأعراف يصِفُ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ما حصلَ للجبل عندما تجلَّى له: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف، 143]، وهذا دليلٌ على شدَّةِ خشيةِ الجبلِ منَ الله تعالى. ومثالٌ آخرُ على خشيةِ الجبلِ من الله نجدُه في سورة الأحزاب في الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا

جَهُولَا﴾ [الأحزاب،72]، هذه الآيةُ توضِّحُ كيفَ أنَّ الجبال تعرِفُ قَدْرَ نفسِها، وحدودَ إمكاناتها، وتَذِلُّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خشوعٍ، ونجدُ تشبيهًا قريبًا جداً في سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، وكذلك نرى في سورة الرعدِ كيف يُسيّر اللهُ الجبالَ بالقرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: 31].

وهناك صورةٌ أخرى لخشية الجبال من الله تتمثَّلُ في تصوير موقفها من أفعال الكفار، نجد مثالاً في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 46]. ومثالاً آخرَ في سورة مريم ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 91-90]. وبما أنَّ السُّجودَ أهمُّ مظاهر الخشية والتذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكانَ لابدَّ من أن نجد في القرآن وصفًا لسجود الجبال، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 18]. وقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: 18]، وقال كذلك: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: 79].

الصورةُ الأخيرةُ التي نشرَحها عن تذلُّلِ الجبالِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتمثلُ في حالها يومَ النُّشور، يومَ يَطوي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السماءَ

كطيِّ السِّجِلِّ للكتابِ، وقد عرضَ القرآنُ عدةَ صورٍ لحالِ الجبالِ آنذاك، فهناك آياتٌ تتحدثُ عن تسييرِ الجبالِ:

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الكهف: 47].

﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠﴾ [الطور: 10].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾ [النبأ: 20].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ [التكوير: 3].

وعند ربْطِ هذه الصفاتِ بصفاتِ الفاروقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ نجدُ العديد من الشواهدِ التي توضِّحُ تذلُّلَ أميرِ المؤمنينَ وخشوعَهُ لله، فقد كانَ شديدَ الحرصِ على الصلاة، وعلى تأدية المسلمين لها في وقْتِها، بل كانَ يحرِصُ على أنْ يُؤَدُّوها على أصولها، فكانَ يُلاحظُ إذا طأطأَ أحدُهم رقبتَه أثناءَ الصلاةِ أنهُ يأمرُه أنْ يرفعَها (العتوم، 2020م)، وكان الفاروقُ من شدَّة خشوعه في الصلاة يُسمَع بكاؤه أثناءَ تلاوته للقُرآن، لدرجة أنَّه كانَ يظهرُ خطَّان أسودانِ على خدِّه من شدَّة البكاء (المصري، 2002م)، وحتى عندما طعنَه أبو لؤلؤةَ المجوسيُّ أثناءَ الصلاةِ، استمرَّ في صلاته إلى أنْ خرَّ مغشيًا عليه من شدةِ النزْفِ، وعندما أفاقَ سألَ مَن حولَه: «هَلْ صَلَّى النَّاسُ؟»، وقال: «لَا إِسْلَامَ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ» (غنيم، 2021م).

ومـنْ صُـوَرِ خشـيةِ الفـاروقِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ديمومتُـه علـى محاسبةِ نفسِه، وتذكيرُها بفضلِ الله عليه، تَرْوِي مقالةٌ تمَّ نشرُها في موقع (طريقِ الإسلامِ) (2015م) أنَّ الفاروقَ صَعِد مرَّةً على المنبرِ، وقالَ:

«يَا أَيُّهَـا النَّاسُ، كُنْتُ صَغِيراً أَرْعَى الْغَنَـمَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، فَكُنْتُ آخُـذُ الْغَنَمَ فَأَسْـقِيهَا، وَأَحْلِبُهَـا، وَأُنَظِّفُ مِنْ تَحْتِهَـا، وَيُعْطُونِي أَجْـرِي عَلَى حِفْنَةٍ مِـنَ التَّمْرِ، يَضَعُونَهَـا بَيْنَ يَدَيَّ، فَـإِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ فَاعْلَمُوا».

ونـزل مـن المنبر، فقال لـه عليُّ بـن أبي طالـبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «يَا أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللهِ مَا أَرَاكَ إِلَّا أَهَنْتَ نَفْسَـكَ!»، فَكَانَ رَدُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «ذَلِكَ مَا أَرَدْتُ، حَدَّثَتْنِي نَفْسِـي أَنِّـي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُؤَدِّبَهَا، وَأُعَرِّفُهَا بِقَدْرِهَا» (طريق الإسلام، 2015م).

كَمَا أسـلفتُ أعلاه، فإنَّ الجبالَ عَرَفَتْ حجْمَ إمكاناتِها عندما أبَتْ أنْ تَحْمِلَ الأمانَةَ، وكذلك سـيدُنا عُمر كانَ حريصـًا على أنْ يُحاسِـبَ نَفْسَـه، فقد كانَ يقولُ: «لَـوْ مَاتَ جَدْيٌ بِطَـفِّ الْفُرَاتِ لَخَشِـيتُ أَنْ يُحَاسِـبَ اللهُ بِـهِ عُمَرَ»(الصلابـي، 2020م)، ومِن أقوالـه أيضـًا: «فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدَاً بِالنُّبُـوَّةِ لَوْ أَنَّ عَنَاقَـا أُخِذَتْ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ لَأُخِذَ بِهَا عُمَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (الصلابي، 2020م).

كما كانَ أميرُ المؤمنين يحثُّ الناسَ على أنْ يحاسِبوا أنفسَهم، فقدْ كانَ يقولُ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ النَّارِ، فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرَهَا بَعِيدٌ، وَمَقَامِعُهَا حَدِيدٌ» (الصلابي، 2020م)، وقالَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَهَيَّؤُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ» (الصلابي، 2020م)، ومن أشهر أمثلةِ خشيةِ الفاروقِ لله، ومحاسبتِه لنفسِه، أنَّه في عام الرَّمادةِ عندَما كانتْ بَطْنُهُ تُصْدِرُ أصواتًا من شدةِ الجُوعِ لاختصارِه الزَّادَ على الخبزِ بالزَّيْتِ، كانَ يقولُ: «قَرْقِرِي أَوْ لَا تُقَرْقِرِي، لَنْ تَذُوقِي طَعْمَ اللَّحْمِ حَتَّى يَشْبَعَ أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ» (الدوسري، 2015م).

حَقيقَةُ الدُّنْيَا

وبعدَ كلِّ هذا يقدمُ القرآنُ وصفًا لنهاية حالِ الجبالِ، فقد وردَ في القرآنِ كيفَ أنَّ اللهَ سبحانه يَنْسِفُ الجبالَ يومَ القيامةِ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ١٠٥﴾ [طه: 105].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ١٠﴾ [المرسلات، 10].

وهناكَ أفعالٌ أخرى غيرُ النَّسفِ استخدَمها اللهُ سبحانه في القُرآنِ لوصفِ حالِ الجبالِ يومَ القيامة، فنجدُ الفعلَ «بُسَّت» ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ٦﴾ [الواقعة: 5 – 6]، وكذلك الفعلُ «دُكت»: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ١٤﴾ [الحاقة: 14]،

كلُّها أفعالٌ تشتركُ فيها معاني الفناءِ والانتهاءِ والزَّوال التي يَجِبُ أنْ تَؤُول إليها كلُّ مخلوقاتِ الدنيا بما فيها الجبالُ على عظَمَتِها وشُموخِها وصَلابتِها.

وهـذه أمثلةٌ أخـرى وردَتْ في القـرآن عن حالِ الجبـالِ يومَ القيامةِ:

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: 14].

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩﴾ [المعارج: 9].

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥﴾ [القارعة: 5].

في هذه الآياتِ موعظةٌ وتذكيرٌ أنَّ كلَّ شيءٍ في هذه الدنيا مَهمَا عظُـم وكَبُرَ وارتفعَ وشَـمخَ وتألَّقَ، فإنَّه يأتي إلـى نهايةٍ حتميةٍ لا مفرَّ منها. وهذا يعني أنَّ انبهارنا بالأشـياء لا يجبُ أن يُنسـينا أنَّ الدنيـا زائلةٌ، فبطبيعةِ الحالِ كلُّ ما عليها إلى زوالٍ، ولا يبقى إلا العملُ الصالحُ، والأثرُ الطيِّبُ.

وكذلكَ سـيدُنا عُمر بنُ الخطابِ توفِّـيَ وهو في أوج عطائه، وقِمَّة خشـوعِه، وأقصى درجاتِ التذلُّل لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فقدْ قُتِلَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ غَـدْراً أثنـاءَ تأديته صـلاةَ الفجرِ التي ينامُ عنهـا كَثيرٌ من المسـلمين اليـومَ، في حين لم يكـن أبو لؤلؤة المجوسـيُّ نائمًـا وقتها، فقدْ قام هذا المجوسـيُّ بطعن الفاروقِ بسـكِّينٍ مسمومةٍ

عِدَّةَ طَعناتٍ، وقطعَ أمعاءَه، حتى وقعَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مغشياً عليه.

نعمْ هذه هي حقيقةُ الأمور: «مَا طَارَ طَيْرٌ وَارْتَفَعَ، إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعَ»؛ لذلك وَجَبَ علينا أن نحرصَ دائماً على ترْكِ ذكرى طيبةٍ لنا يذكرُها الأهلُ، وقد يذكرُها التاريخُ كذلك، فكما ذكَرَ القرآنُ أنَّ الجبالَ مصيرها إلى النسفِ والاختفاء، فقدْ تركَ لنا كذلك وصفاً لأثرِ الجبالِ نستطيعُ أنْ نستشعرَه ونعيشَه على أرض الواقعِ، وكذلك وفاةُ الفاروقِ لا تجعلنا ننسى شخصيتَه المميزةَ التي جمعَت صفاتِ الشدةِ والعطفِ والتواضعِ والعطاءِ في مزيجٍ قد لا يكررُهُ التاريخُ مرةً أخرى.

ولا تزالُ سيرةُ الفاروقِ تعجُّ بقَصصٍ أخرى عن حُسنِ أخلاقِه، وشِدَّةِ وَرَعِه وإيمانِه، ولكنَّ المجالَ هنا لا يَتَّسعُ للحديث عنها، وبإمكان القارئِ أنْ يُلِمَّ بهذه القصصِ بالاجتهادِ الشخصيِّ، والقراءةِ حول الموضوع.

خُلاصةُ القولِ: أنَّ هناك صفاتٍ كثيرةً تجمعُ بين الجبالِ وسيدِّنا عُمرَ بنِ الخطاب، وأنَّ هذا التشابهَ يُلْهِمُنا أنْ نحذوَ حذْوَ الفاروق، وأنْ نجعلَهُ قدوةً لنا في كلِّ تصرفاتنا وعباداتنا حتى نجمعَ بينَ ثباتِ الجبَلِ، وعدْلِ عُمرَ.

ولا يزالُ القرآنُ يحدِّثنا بمزيدٍ من الأحاديث، ولكنَّ المنصتونَ قليلٌ ... للأسف!

المراجع:

- التاريخ الكبير للبخاري (8/ 9).
- الدوسري، سلمان (2015م)، الفاروق بطنه له صوت، أخبار الخليج. الرابط المباشر: akhbar-alkhaleej.com/13613/article/30503.html.
- الصلابي، علي (2020م)، التقوى والزهد والورع في رحاب سيرة عمر بن الخطاب. الجزيرة نت.
- العتوم، ندى (2020م)، خشوع الصحابة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في صلاتهم. عربي.
- المصري، محمود (2002م)، أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مكتبة (أبو بكر الصديق).
- تفسير القرطبي (213).
- صفات عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأهم أقواله، النجاح، تاريخ آخر تحديث 19-01-2020م الرابط المباشر: http: //ila.io/19r7s
- طريق الإسلام (2015م)، عمر بن الخطاب رِقَّة عمر بن الخطاب، الرابط المباشر: ar.islamway.net/article/46431
- عبد الجواد، أحمد الجوهري (2017م)، حقوق الطفولة في دولة الإسلام، شبكة الألوكة الاجتماعية. الرابط المباشر: 120297/alukah.net/social/0
- غنيم، علي (2021م)، صور من خشوع الصحابة في الصلاة، حول الرسول (الصحابة والتابعون).



درسنا في مادة الأحياءِ وعلمِ البيولوجيا، أنَّ عضلةَ اللسانِ هي العضلةُ الوحيدةُ في جسمِ الإنسانِ التي لا تتْعَبُ أبداً؛

حيثُ إنَّها العضلةُ الأقوى على الإطلاق في استمراريَّة الحركَةِ، وإن تمَّ استخدامها طوالَ اليوم، هذهِ الحقيقةُ تمثِّل أحدَ صورِ رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنا؛ حيثُ إنَّ عضلةَ اللسانِ لا تحتاجُ منَّا بَذْلَ مجهودٍ لتحريكها مقارنةً بباقي عضلاتِ الجسم، كما أنَّها لا تحتاجُ إلى المواظبة على التمارين حتى تحافظَ على نشاطها وصحَّتِها. والسؤالُ هنا: هل أحسَنَّا شُكْرَ هذه النعمةِ؟ فليحاولْ كلُّ قارئ أنْ يجدَ إجابةً لهذا السؤالِ في نفسه.

ولمَّا كان للِّسان هذه المرونةُ الكبيرةُ، فقد اعتمد صلاحُ باقي أعضاءِ الجسدِ عليه، فقد جاءَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ لَهُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[1] (أخرجه الترمذي، واللفظ له)، وعن بلال بن الحارث قال: إن

(1) رواه الترمذي في (سننه)، أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (4/ 605)، رقم (2407).

الرسـول ﷺ قـال: «إِنَّ الرَّجُـلَ لَيَتَكَلَّـمُ بِالْكَلِمَـةِ مِنْ رِضْـوَانِ اللهِ مَـا كَانَ يَظُـنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَـا بَلَغَتْ، يَكْتُـبُ اللهُ تَعَالَى لَـهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَـى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُـلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1] (صحيح، الألباني).

وبالرغـمِ مـنْ سـهولةِ حركةِ عضلـةِ اللسـانِ، إلَّا أنَّ أفضلَ اسـتخدامٍ لهـا هو الحـدُّ منَ اسـتخدامها قدْرَ المسـتطاع، فقد ثبـتَ في الحديـثِ الصحيحِ عـن أبي هريـرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنـهُ قالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْـكُتْ»[2] (أخرجه البخاري). لاحظوا كيف ارتبط حفظ اللسـان بالعقيدة، وهنا نفهم الأهمية الكبرى لهذا الأمر، وكيف أنَّ الصَّمت هو أحد جنود الله سبحانه وتعالى التي سـخَّرها لنـا؛ لحمايتنـا من أنفسـنا، ومثلـه عندما سـأل عقبة بـن عامر الرسول الكريم: ما النجاة؟ فقال ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ

(1) رواه ابن ماجه في سـننه، كتاب الفتن، باب كف اللسـان في الفتنة (2/ 1313)، رقم (3970)، وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (8/ 100)، (6476)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (1/ 69)، (48).

لِسَانَكَ، وَلْيَسَـعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[1] (الترمذي).

أوَّل سبيلٍ للنَّجاة هو الصمتُ، وليس حسابَ التوفير في البنك، ولا الشـهادات العليـا؛ إنما هو صونُ اللسـان. ولكننـا بحُكْمِ طبيعتنا البشـرية نَغْفَلُ عن هذا الأمر كثيراً، ونسـيءُ اسـتخدامَ نعمةِ اللسان، وهنا أصبحَ صوْنُ اللسانِ أحدَ صورِ جهادِ النفسِ التي تتطلبُ منَّا بذلاً وصبراً وإيمانـاً.

قد يسألُ القارئُ عن كيفية صونِ اللسانِ، والإجابةُ تَكمُنُ في معرفة السببِ وراءَ تفضيلِ الصمتِ على الكلام.

كثـرةُ الكلامِ يمكـنُ أنْ تقودَنا إلى الخـوض في أمورٍ قد لا تُحمَـدُ عُقباهـا، وقدْ تجعـلُ صاحِبَها يحصُدُ الذُّنـوب والآثامَ التـي قد تتفاقمُ، وتتحولُ إلى سـيِّئاتٍ جاريَـةٍ -والعياذ بالله-، ولذلك عندما سـألَ معاذُ بنُ جبل النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ عملٍ يُدخلُه الجنةَ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، وأشارَ إلى لسـانِه، عندها سألَ معاذٌ «يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِـهِ؟» فقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[2] (رواه الألباني).

---

(1) رواه الترمـذي في سـننه، كتـاب أبـواب الزهـد، باب مـا جاء في حفظ اللسـان (4/ 605)، رقم (2406)، وصححه الألباني.

(2) رواه الترمـذي في سـننه، كتـاب أبواب الإيمـان، باب ما جـاء في حرمة الصلاة (5/ 11)، رقم (2616)، وصححه الألباني.

وبالرجوع إلى تعاليم الإسلامِ نجدُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رتَّب لنا طُرُقَ صَوْنِ اللسانِ وحفظِه من اللَّغوِ واللغَطِ، فجعَلَ اللهُ تعالى قذْفَ المحصناتِ من الكبائر السبعِ الموبقاتِ، وجعلَ إقامةَ الحدِّ على كلِّ من يتلفظُ بكلام غيرِ لائقٍ على أي مُسْلمَةٍ بغَضِّ النَّظرِ عن نواياه؛ بمعنى أنَّ عبارةَ «كُنْتُ غَاضِبًا»، أو «لَمْ أَكُنْ أَقْصِدُ» لا يُعتد بها أبداً، ولا تُسقِط عنه الحدَّ.

وبالرجوع إلى حادثةِ الإفكِ نجدُ أنَّ حدَّ القذفِ تمَّ تطبيقُه على حسانِ بنِ ثابتٍ رغم أنه كانَ يقولُ أشعارَ المديحِ في الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لقَّبوه بشاعرِ الرسول، إلا أنَّه خاضَ في حادثةِ الإفكِ، وتكلَّمَ في موضعٍ ألزمَ الكثيرينَ الصمتَ.

وحتى زينبُ بنتُ جحشٍ زوجُ الرسولِ عندما سألَها عن رأيها حولَ الموضوع قالَتْ: «أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي يَا رَسُولَ اللهِ»[1] (صحيح البخاري: 2661). زينبُ بنتُ جحشٍ لم تخضْ في أمرٍ لم تكنْ مُلمَّةً بحيثيَّاتِه؛ امتثالاً لقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:

(1) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا (3/ 173)، رقم (2661)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (4/ 2129)، رقم (2770).

36]، وقوله تعالى ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 15 - 16]. والسؤالُ: أينَ نحنُ مِن تصرُّف زوْجِ الرسولِ الكريم؟!

إيَّاكم والأَعْراضَ، إيَّاكم والأَعْراضَ؛ فإنَّه للأسف يتساهلُ الكثيرون في هذا الأمر، ونجدُهم يخوضون في الأَعْراض متحجِّجين بأنَّهم يقولون الحقَّ، ولا يَفترَون على أحدٍ، لا يعلمون أنَّه حتى وإنْ كان كلامُهم صحيحًا لا يجب أن ينطقوا به؛ لأنَّه أمرٌ جَللٌ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: 15]. وعاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: 23].

إنَّما هو ضَعْفُ الإيمانِ وتأخيرُ العقابِ ما يجعلان ضِعافَ النفوسِ يتجرؤونَ على المحرَّمات، ويلوكون الأعراضَ ظنًّا منهم أنهم بهذه الطريقةِ يكسبونَ النقاشَ، أو يفحمون الخصمَ! وقد يزيدُهم تشجيعُ مناصريهم لهم، ويجعلهم يتمادون في غيِّهم؛ إرضاءً لغرورهم، أو إرضاءً لمناصريهم، وكأنَّ مناصريهم يملكونَ مفاتيحَ الجنَّةِ!

لذلك فقدْ أفلحَ المؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 3]، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: 55]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: 63]. نعمْ الخوضُ في اللَّغوِ هو جهلٌ مطبقٌ، ولا عُذر له ألبتَّة، ولا ينفعُ أنْ يكونَ العذرُ أنَّ الجميعَ يفعلُ هذا، فقد قالَ تعالى ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر: 45-48].

ويأمرُنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ نتنبَهَ لكلِّ ما نتلفظُ به، وهذه بعضُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70].

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: 63].

وحتى عندما أمرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النبيَّ موسى أنْ يذهبَ إلى فرعونَ أعتَى الطغاةِ، قالَ له: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: 43-44]. وذلك لأنَّ القولَ الطيِّبَ يعكسُ أخلاقَ المتكلِّم، ولا عَلاقةَ له بموقِفِ المتكلِّم مِن المُخَاطَبِ.

وفي وصفِ أهلِ الجَنَّة نجِدُ القرآنَ يصفُهم بأنَّهم ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ [مريم: 62]، وأنَّهم ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: 25-26]، و﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: 58]، وأنهم ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ [النبأ: 35]، وَ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: 44] وذلك لأنَّ أهلَ الجَنَّةِ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحج: 24].

وبِما أنَّ ربَّنا الغفورُ ذو الرَّحمة، فإنَّه التَّوَّابُ الرحيمُ الذي يغفرُ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرنا، فنجدُ الآياتِ التي نلتمسُ فيها عفوَ الله لنا عنِ اللغوِ، فقالَ تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [البقرة: 225]، وكذلك قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ [المائدة: 89]، ومنها أيضًا: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: 148]. ولكن علينا دائمًا أن نتدارك أنفسنا، ونتوب إلى الله ونستغفره كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 135].



ردُّ الإساءةِ اللفظيَّة

ولكنْ كيفَ يتعاملُ المرءُ معَ مَن يسيئونَ إليه؟

جميعنا نتعرَّضُ لمواقفَ نسمعُ فيها من الكلامِ ما يجرحُ الفؤادَ، أو ما يُهينُ، والكثيرونَ يرُدُّون السِّباب بالسِّباب، أو الخطأَ بالخطأ، لكنَّ في هذه الحالة تُكتب عليك سيِّئةٌ مهما كان عذْرُك.

ومرةً أخرى يعطينا القرآنُ طريقةَ التصرفِ في أحوال كهذه؛ فقالَ تعالى في سورة المؤمنونَ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 96]. ويشرح لنا القرآن كيف ندفع السيئةَ، إجمالاً يأمُرُنا اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالصبر والابتعادِ عن كلِّ ما قد يتسببُ في إهانتنا، قالَ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: 10]. هجراً جميلاً: بمعنى أنْ نأخذَ موقفًا منهم بأنْ نعتزلَهم ونتركَهم دون ردِّ الإهانة؛ لأنَّ الردَّ لا يجعل الهجرَ جميلاً، لذلك من الأفضل أنْ نعتزلَهم، واللهُ كَفيلُنا.

وإلى جانبِ الصبْرِ، فإنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يأمُرُنا بالتسبيحِ، فقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 97، 98]. ومنها قولُه تعالى:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ

وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ [طه: 130].

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق: 39-40].

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الطور: 48- 49].

ارتبطَ الصبرُ بالتسبيح في هذه الحالاتِ؛ لأن اللِّسانَ بطبيعته في حركـةٍ دائمةٍ، وأنَّـه منَ الصعب ترويضُه علـى عدمِ الحركَةِ، فـإذا كانَ الصمتُ أمراً صعباً، وإذا كانَ لا بد مِن النُّطق ولا مَفرَّ من الكلام، إذاً فلْنَشغَلِ اللسانَ بالذِّكر والتسبيحِ حتى لا ينشغلَ بالغِيبَةِ والنَّميمةِ والهَمْزِ واللَّمْزِ، وغيرِها من صُوَرِ اللَّغوِ وسـيِّئ الكلامِ.

وقدْ وصفَ القرآنُ أنَّ مَن يتَّصفونَ بهذه الصفاتِ همْ أشخاصٌ وَجبَ تَجنُّبُهـم ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ ﴾ [القلم: 10- 11]، لأنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ اعتبرَ هذهِ التصرُّفاتِ فسـقـًا ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: 11]. بالإضافة إلى ذلك فقدْ توعَّدَهم اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعاقبةِ الوخيمةِ ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: 1].

عندما يتطاولُ عليك شخصٌ بالكلام البذيءِ لا ترُدَّ عليه أبداً، فقطْ اكتفِ بالتسبيحِ، وبذلك يُكتبُ في السِّجلَّات أنَّه بينما كانَ شخصٌ ما يشغَلُ لسانَه بالسِّباب والشتائم، كانَ هناك شخصٌ آخرُ في ذاتِ الوقتِ يذكرُ اللهَ؛ الفكرةُ في حدِّ ذاتها مريحةٌ، وأجرُها يَستحِقُّ أنْ نبذلَ له الصَّبرَ بالصَّمت عن السُّوء.

تأمينُ الحياةِ

ويعرِضُ القرآنُ (بوليصةَ تأمينِ الحياةِ) لمَن أرادَ أنْ يضمنَ حياةً كريمةً له ولأولاده مِن بعده، والضامنُ اللهُ؛ قالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: 70]. الآيةُ التي تليها تُوَضِّحُ نتيجة التخلُّق بالقول السديد ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 71]. المعنى صريح ومباشر جداً: إذا أردْتَ صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب، فعليك بسَداد الأقوال، لا تسُبَّ، ولا تشتم، ولا تغتَبْ، ولا تَسخَرْ، ولا تَنُمَّ، اترك الناس وشأنَهم، وعليك بنفسك فقط؛ لأنك يوم القيامة سوف تُبعث وَحدَك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: 105].

وبالمثلِ يمكنكَ حمايةُ أبنائك بالقولِ السديدِ؛ الأمرُ يتمثَّل

في كفِّ اللِّسان عن اللغوِ واللغطِ، فقدْ قال تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]. جميلٌ أن نضع هذه الآيةَ نصبَ أعيننا في كلِّ مرة نجتمع في المجالس ونتبادل أطراف الأحاديث، وبالرغم من وجود آيةٍ أخرى تُحذِّر مِن الغِيبة والنميمة، وتُشبِّهُ الأمرَ بأكل لحم الشَّخص ميتاً؛ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: 12] إلَّا أنَّ الكثيرين يغفلون عن هذه الآية، ولا يُعيرونَها أهميَّةً، ربما لأنَّهم لا يشعرون بخطورة الموضوع؛ لأنه لا يمس أبناءهم.

ولكنَّ الآية من سورة النساء التي تحثُّ على الحَسَن من القوْلِ، تَربِطُ الأمرَ بالخشيَةِ على مستقبل الأبناء، ولذلك هي مرجحةٌ أكثرَ لكيْ ترسُخَ في عقول وقلوبِ الناس؛ فلنتذكرْ هذه الآيَةَ في كلِّ مرَّةٍ نجدُ أنفسنا نتكلَّمُ عن شخصٍ في غِيابه، إنْ لمْ يكنْ مِن أجلِ ذلك الشخْصِ، فمِنْ أجلِنا نحنُ وأبنائنا.

إنَّ السبَّ والشَّتمَ أمرٌ سهلٌ جداً، وهو في مُتناولِ كلِّ مَن له لِسانٌ وعنده القدرةُ على النُّطْقِ، ولذلك هو تصرُّفٌ غيرُ بطوليٍّ، ولا شيءَ مميزٌ فيه. التميزُ يَكمُنُ في أنْ يَكون بإمكانك الرَّدُّ بنفسِ الأُسلوب، ولا تفعَلُ.

وبما أنَّ هذا الأمرَ مميزٌ؛ إذاً هو صعبُ المنال، ولا يحظى به إلَّا الخاصةُ المميَّزونَ حقًّا عند اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35]. فحاولْ أنْ تكونَ من ذَوي الحظِّ العظيمِ.

وفي كلِّ الأحوالِ لا أفضلَ مِن أنْ نشغلَ ألسنتَنا بالأذكار والتسابيحِ بكرةً وأصيلاً كما ذكرَ القرآنُ. فالقرآنُ يعجُّ بالآيات التي تأمرُنا بالذِّكرِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ومكانٍ وزمانٍ، وهذه أفضلُ طريقةٍ لِصَوْنِ اللِّسانِ، فكما يقولُ المثلُ: «لِسَانُكَ حِصَانُكَ؛ إِنْ صُنْتَهُ صَانَكَ، وَإِنْ خُنْتَهُ خَانَكَ»، ويقولون: «إِذَا كَانَ الكَلَامُ مِنْ فِضَّةٍ، فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ»؛ لأنَّ الكلمة قد تكونُ السببَ في نشوبِ حربٍ طاحنةٍ كما قالَ الشاعر:

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذْكَى وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ(1)

ولا يجبُ أنْ نغفَلَ عن أمرٍ مهمٍّ، وهو أنَّ ألسنتَنا ستشهَدُ علينا يومَ القيامةِ، وستُخبر عن استعمالنا لها ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]. كلُّ أعضاءِ الإنسان ستشهدُ عليه يوم القيامةِ، ولنْ يكونَ للإنسان حينها

(1) من شعر نصر بن سيار آخر ولاة بني أمية على خراسان، انظر: البيان والتبيين للجاحظ (1/ 146)، ط الهلال.

أي تحكُّمٍ أو سيطرةٍ على لسانِه وجوارحِه ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: 21]. بمَعْنى أنَّ مَن يتفنَّنُ في الكَذِبِ في الحياةِ الدنيا، ويتباهى بقدرته على خِداعِ الناس عنْ طريقِ المراوغةِ بالكلام، سيَقِفُ عاجزاً تماماً أمامَ لسانه يومَ القيامة، وسوف يُجيب هذا اللسانُ على كلِّ أسئلةِ الرحمنِ بكلِّ صدقٍ واستقامةٍ، ولنْ يكونَ للإنسانِ وَقْتَها حِيلَةٌ أبداً.

خِفْتُم أليسَ كذلك؟!

لمْ يَفُتِ الأوانُ بعدُ، ولا يزالُ بابُ التوبةِ مفتوحاً، فلِمَ الانتظارُ؟!

ويظلُّ الصمتُ أفضلَ الخياراتِ المتاحةِ؛ لأنَّه يجبُ أنْ نتذكرَ دائماً أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيءٍ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: 80]، و﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء: 110]. وفي النهايةِ لن ينفعك أحد ولن تجد إلا عملَك، فاجعله صالحاً وضع نصب عينيك أنه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18].

ما أجملَ أحاديثَ القرآنِ لمنْ أرادَ الإصغاءَ!

المراجع

- الألباني (ت 1420)، صحيح الترغيب 2878، حسن.
- الألباني (ت 1420)، صحيح الجامع 5136، صحيح.
- البخاري (رقم: 2661)، صحيح.
- البخاري (رقم: 6018)، صحيح.
- الترمذي (ت 279)، سنن الترمذي 2407، حسن.
- الترمذي (رقم: 2407).



الحديث الثالث الرِّيح والرِّياحُ وجرائرُ الأعمالِ

يقولُ القائلُ: «أَيُّ رِيحٍ طَيِّبَةٍ أَتَتْ بِكَ ... مِنْ أَيِّ أَرْضٍ حُلْوَةٍ أَتَيْتَ إِلَيَّ»، وَصْفُ الرياحِ بالطَّيِّبَةِ دليلٌ على الموقفِ الإيجابيِّ تجاهَ هذا الشخْصِ، وبالرغم مِنْ أنَّ القائلَ استخدَمَ كلمةَ «ريح» بدلَ كلمةِ «رِياحٍ»، وَسنشرحُ الفرْقَ في الأسطرِ القادمَةِ، إلا أنَّ المعنى جليٌّ، والمغزى واضحٌ في هذه الكلمةِ.

منَ الواضحِ أنَّ هذا الشخصَ هو شخصٌ جيِّدٌ ذو أخلاقٍ عاليةٍ؛ ولذلك فرِحَ الجميعُ برؤيتِه من جديد، بمعنى أنَّ عاقبةَ تصرُّفاتِ هذا الشخصِ جعلَتْ كلَّ شيءٍ حولَه وبخصوصه إيجابيًّا.

باختصارٍ: المُحْتَرَمُ يُحْتَرَمُ.

وقبلَ أنْ أسرُدَ الكلامَ حولَ موضوعِ هذا الحديث، لنشرحْ أولاً الفرقَ بين معنى «الريح»، ومعنى «الرِّياح»، يشرحُ الشيخُ الشعراويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الدجاني، 2020م) الفَرْقَ بين الكلمتينِ: بصفةٍ عامةٍ لفظُ «الرِّيح» يأتي في القرآن في موضعِ العذابِ، وإنزالِ العقابِ على القومِ الظالمينَ، وهذهِ بعضُ الآياتِ حولَ هذا المعنى:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: 41-42].

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 117].

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: 69].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: 51].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6].

ولكـنَّ هناك مواضعُ في القرآن ذُكِر فيها لفظُ «الرِّيح» بمعانٍ إيجابيـةٍ، ففي قولِه تعالـى ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22]. ويشـرحُ الشـيخُ الشـعراويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الدجاني، 2020م) معنـى عبـارةِ «رِيـحٍ طَيِّبَـةٍ» في الآيـة: حيـثُ إنَّهم في السـفينة،

وليسَ مِن صالحهم أنْ تأتيَهُم رياحٌ مِن عدَّةِ اتجاهات، فكانَ مِن الأسلمِ لهم أنْ تأتيَ الريحُ منَ اتجاهٍ واحدٍ، وهنا نَستشعرُ واحداً منَ المفاهيم المهمَّةِ في الحياة، وهوَ أنَّ لكل مَقامٍ مقالٌ، وأنَّ كلَّ ظرفٍ له حَيْثِيَّاتُه وخصائصُه، وعليهِ فلهُ أحكامُه التي تختلِفُ باختلافِ هذهِ الحيثيَّاتِ.

وعلى غرارِ هذا التفسيرِ نجدُ لفظَ «الرِّيح» ذُكِر كجنديٍّ سخَّرَه الله للنبيِّ سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالَ تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: 81].

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: 12].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 35].

والسببُ أنَّ الريحَ التي سخرَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للنبيِّ سليمانَ هي ريحٌ مخصوصةٌ له دونَ غيرها من الرياح، ولهذا جاءتْ مفردةً (الدجاني، 2020م). هذا الاستثناءُ يؤكدُ حقيقة أنَّ الكمالَ للهِ وحدَه، وأنْ لا أحدَ ولا شيءَ له مطلقُ التحكُّمِ والتملُّكِ والتفرُّدِ بأيِّ شيءٍ سواهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مِن المهمِّ أنْ نتذكَّرَ دائماً أنَّه مهما بَلَغَتْ قُوَّةُ الإنسانِ وقُدراتُه فهو مخلوقٌ ضعيفٌ ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النساء: 28] ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وبعكسِ الريحِ، فلفظُ الرياحِ يحملُ معانيَ الرحمةِ والرزْقِ، وهذهِ آياتُ الرياحِ في القرآنِ:

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 164].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57].

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الحجر: 22].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: 48].

﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [النمل: 63].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الروم: 45].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم: 48].

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [فاطر: 9].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ [الشورى: 32-33].

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الجاثية: 4].

وهنا نلاحظُ عدَّةَ أوجهٍ للرحمةِ والرزْقِ، ولهذا جاءتْ كلمةُ الرِّياحِ بصيغةِ الجمْعِ، ومـنْ جديدٍ يقودُنا التأملُ في القرآنِ إلى اكتشافِ أنَّ هناك مواضعَ ذُكر فيها لفظُ الرياحُ كتصويرٍ للعقاب الإلهيِّ؛ فقالَ تعالَى:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ ﴾[1] [إبراهيم: 21].

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف: 44].

في هاتيـنِ الآيتيـنِ جاءَ استخدامُ لفظِ «الريـاح»؛ لأنها تأتي مـن عدَّة اتجاهاتٍ، وليس منَ اتجـاهٍ واحدٍ؛ بمعنى أنَّ العقابَ الإلهـيَّ كانَ شـاملاً لنهايـة الظُّلـمِ وسـوءِ العمـلِ (الدجـاني، 2020م).

ما نستطيعُ أنْ نستخلصَه منْ كلِّ هذه الآياتِ إجمالاً أنَّه تأتي «الريحُ» عقابـاً على سوءِ التصرُّف، وتأتي «الرِّياحُ» بالخيرِ جزاءً علـى حُسْـنِ العمل، وهذه سُـنَّةُ اللهِ في خَلْقِه، فالحسـنةُ بعشـرِ أمثالهـا، أمَّا السـيئةُ بمثلِها. وهذا يسـاعدُ على توقُّـع ما تقودُنا إليه تصرُّفاتُنـا، وهي رحمةٌ من اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنْ يضعَ لنا هذه المعانيَ في القرآن؛ لأنَّه يحبُّ عودتَنا إليه، ويريدُ لنا التوبةَ.

الأمـرُ ليسَ علمـاً بالغيـب، ولكنه اسـتنتاجٌ لعاقبة الأعمال والتصرُّفات؛ واستشـهادٌ بقصَصِ الأممِ السابقةِ التي وردتْ في

---

(1) وهـي قـراءة نافع أبي جعفر المدنيان. انظر: شـرح طيبة النشـر للنويري (2/ 189) ط دار الكتب العلمية.

القرآنِ الكريمِ، والتي تبيِّنُ سُنَّةَ اللهِ في الكون، وهذا يعني أننا نَستطيعُ توقُّع مصيرِ مَن يَسْرِقُ ويَرتَشي ويَظْلِمُ ويَتجبَّرُ ويَطغى ويُسيءُ مُعاملةَ البشر وإن امتدَّ غيُّه لسنوات وسنوات، وحتى إن زهَت الدنيا له، وفتحَ اللهُ له أبوابَ الرزْقِ، ومدَّ في عمره، فهذا كلُّه إملاءٌ من الله تعالى له، وتمديدٌ لعله يغتنمُ الفرصةَ ويتوبُ، وفي حال أنَّه لم يتبْ، وماتَ على حاله هذه -والعياذُ بالله-، فلن تكونَ له حجةٌ يومَ الحساب، وذلك لأنَّ الفرصةَ كانت متاحةً له طوالَ الوقتِ في الحياةِ الدنيا لكي يتوبَ، ولكنَّه ضيَّعَها بجهله وغفلَتِه.



الفاتورةُ

السرُّ في الإملاء وتأخيرِ العقاب؛ فعندما يتأخَّرُ العقابُ يطمئنُّ الإنسانُ الجهولُ، ويتمادى في جهله وظُلْمِه لنفسه، وما سُمِّي إنسانًا إلا لأنَّه يَنْسى؛ فينسى الظالمُ أنَّ هناك فاتورةً لتصرُّفاته يجبُ أن تُدفعَ مهما طالَ الزمنُ، فنجدُ أمثلةً عن زملاء في العملِ يكيدون لزميلٍ لهم ولا يتركونَه إلى أنْ ينتهيَ به المطافُ إمَّا بالفصل، أو بالاستقالةِ، هذا إنْ لم يتفاقمِ الوضعُ إلى الملاحقة القانونيةِ ودمارِ المستقبلِ، ونجدُ مديراً يضعُ موظفًا عنده تحتَ المِجْهَرِ دون غيرِه من الموظفينَ،

ولا يتورَّعُ في استخدام كلِّ الطُّرُقِ المشروعةِ، بلْ وربَّما غيرِ المشروعةِ؛ للنَّيْل منه، حتَّى يُقصيَه من عَمَلِه، نَسِيَ هؤلاء أنَّ الأيامَ دُوَلٌ يومٌ هناءٌ، ويومٌ ابتلاءٌ، وأنَّه سيأتي يومٌ يتعرضونَ فيه لمواقفَ مع رؤسائهم كذلك، وعندها سيتمُّ سدادُ الفاتورةِ؛ لأنَّ الديّان لا يموتُ.

ونجدُ موظفًا يختلسُ الأموالَ، وينهبُ الملايينَ، ويتحولُ إلى حوتٍ كبيرٍ من الحيتان الفتّاكةِ التي تنهشُ المجتمعَ، وتُوغِلُ في الفساد، قدْ يجعلُه اللهُ يُنفِقُ هذا المالَ الحرامَ في علاجِ ما قد يُصيبُه من مرضٍ عضالٍ، «الفاتورة»، فيموتُ ويذهبُ المالُ، ويبقى ذنبُ المعصيةِ -والعياذُ باللهِ-.

ونجدُ معلِّمةً تترصدُ لطالبةٍ معينةٍ، غالبًا لأسبابٍ شخصيةٍ أو غيرها، وتقومُ هذه المعلِّمةُ بالإساءة للطالبةِ بالكلامِ الجارحِ والنظراتِ الحادَّةِ، وتقسو عليها بالمعاملةِ السيِّئةِ، وتستخدمُ الدَّرَجاتِ وسيلةً رخيصةً لتدميرِ الطالبةِ، وتتعمدُ إحراجَها أمامَ زميلاتِها، وتعاقِبُها بعقوباتٍ قاسيةٍ على زلَّاتٍ وهفواتٍ صغيرةٍ، هذهِ المعلِّمةُ لا تدري ما يُخَبِّئُهُ لها القَدْرِ، فقدْ تَدورُ الأيامُ وينكشفُ سترُ اللهِ عليها أمامَ رؤسائها والمجتمعُ كلُّه في الدنيا، فكيفَ ستضمنُ المعلمةُ التي تتعمدُ التقصيرَ والتجبرَ

بسـلطةِ التعليمِ للطالبات، أنَّها لـن تدفعَ الفاتورة إن لم تكنْ في الدنيا، فبلا شكٍّ يومَ القيامةِ!

ونجـد صاحـبَ العملِ يُهيـنُ أجيـرَهُ ويجرَحُه بالـكلامِ إذا لـم يُعجبْه عمَـلُ هذا الأجيرِ الذي يكونُ علـى الأغلبِ مغتربـًا اضطرَّتْه الظروفُ القاسـيةُ أنْ يتغرَّبَ عـن بلدهِ وأهلِه منْ أجلِ لُقْمَةِ العيشِ، هذا الإقطاعيُّ الظالمُ لا يعلمُ منْ أينَ ستهبُّ عليه الريحُ؛ حيثُ إنه نسـيَ تمامـًا أنَّ الأيامَ دولٌ، وقد يأتي يومٌ يجدُ نفسَه مغتربـًا يسدِّدُ ثمنَ الفاتورة؛ فاتورةِ معاملتِه السيئةِ لأجيرهِ الضعيفِ المغلوبِ على أَمْرِهِ.

ونجدُ شـابـًا يتباهـى بعلاقاته معَ البناتِ، وكيـفَ يخدعُهُنَّ ويسـخرُ من مشـاعرهن، ويجعلُهُـنَّ يَعِشْـنَ وَهْمَ الحـبِّ، ثُمَّ يَتْرُكُهُـنَّ بعدَ أنْ يكونَ قد تمكَّنَ من الحصـولِ على صُورٍ لهنَّ لكي يهدِّدُهن بها، هذا الشـابُّ لم يفكرْ في أخواتِه، وإن لمْ يكنْ له أخواتٌ فقدْ يكونُ له بناتٌ في المسـتقبل، أيـًا كانَ، في النهاية هناك ريحٌ ستهُبُّ، وفاتورةٌ ستُسدَّدُ.

ونَجِـدُ أزواجـًا يُمعنـونَ في إهانةِ زوجاتهـم لفظيـًا ومعنويـًا وجسـديّـًا بحجـةِ أنَّها زوجتُـه التـي (يَمْلِكُها!) أقصـدُ بحجةِ أنَّهـا على ذِمَّتِه! فيُفشـي أسـرارَها، ويتكلَّمُ عـن خصوصيَّاتِها

لأصدقائـه؛ ظنّـًا منه أنهـا رجولـةٌ! ويتعمدُ إهانتَها والسـخريةَ منها أمامَ أهله وأمامَ النَّاسِ، معتقداً أنَّ هذه التصرفاتِ ستجعلُه رجلاً في أعينِهم! هذا الزوجُ نَسِـيَ أمراً مهمـًا، وهو أنَّ الفاتورةَ لا بد أنَّه سيُسـدِّدُها إنْ لـم يكنْ في الدُّنيا، فيـومَ القيامةِ وحينَها سيقفُ مكتوفـًا متفرِّجـًا ذليلاً يشاهدُ بعينَيْه عَدْلَ اللهِ في كَوْنِه من غير حَوْلٍ لَهُ ولَا قُوَّةَ، ويَعْلَمُ وقْتَها أنَّ وَعِيدَ اللهِ حَقٌّ.

ونَجِـدُ أُمَّهاتٍ وَأخـواتٍ يَتفنَّنَّ في تَأْلِيـبِ أبنائهِنَّ وإِخوتِهِنَّ علـى زَوجاتِهم، ولا ينتهينَ إلى أنْ يَنتهيَ به الحالُ بالانفصالِ؛ لتزدادَ وتيرةُ المشـاكلِ، وينسـى الـزوجُ طعمَ الراحـةِ، وتُظلَمُ الزوجةُ، ويتشـتتُ الأبنـاءُ. هذهِ الأمُّ نسـيَتْ أنَّ عندها أخواتٍ وبناتٍ فيَجِبُ أنْ تُعامِلَ نِسـاءَ المسـلمينَ بما تحـبُّ أنْ تعامَلَ هـي وبناتُهـا وأخواتُهـا بـه، وهـذهِ الأخـتُ نسـيَتْ أنَّ عندها أخـواتٍ وبناتٍ، فيجـبُ أنْ تُعامِلَ غيرَها بما تحـبُّ أنْ تُعامَلَ هي وبَناتُها وأخواتُها به، وإلا فإنَّها فاتورةٌ لا شـكَّ أنها ستُسددُ ولو بعدَ حينٍ، وكما تدينُ تدانُ.

ونجدُ زوجاتٍ يُحرِّضْنَ أزواجَهن على أمهاتِهم وأخواتِهم، ولا يدّخرن وسـيلةً في أنْ يُشْـعِلْنَ نارَ الفتنةِ بيـن الزوجِ وأهلِه، بـلْ قدْ يَصِلُ بهِنَّ الحـالُ إلى عرقلةِ زواجِ أُختِـه خاصةً إذا كانَ

الشـخصُ المتقدمُ لها شـخصـاً جيداً ذا سمعةٍ طيبةٍ، ولا سببَ لهـذه التصرفـاتِ سـوى الحقـدِ الأسـودِ الذي أعمـى بصيرةَ الزوجةِ، وجعلها تنسى تماماً أمرَ الفاتورةِ.

وقـدْ يقـولُ البعضُ: (أنـا ليسَ عنـدي أخـواتٌ ولا بناتٌ، وبذلـك لا خوفَ مِـنْ أَمْرِ الفاتـورةِ)، ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (البلد: 5)، وهنـا تحصُلُ الطامَّةُ الكُبرى؛ حيثُ يَقعُ هذا الشـخصُ فريسـةً لواحدةٍ من الكبائر، وهي الأمنُ من مَكْرِ اللهِ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعـراف: 99]، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُعجزُهُ شـيءٌ في الأرضِ ولا في السـماء، ولذلـك لنْ يعجزَ سـبحانه أن يجعـلَ الظالمَ يدفعُ الفاتـورةَ بطريقـةٍ أو بأخرى، عاجـلاً أو آجلاً، ويُرِيَنا سـبحانه كيـفَ ينتقمُ مـن الظالم وينصـفُ المظلومَ بطُـرُقٍ يتعجبُ لها أهلُ العجائب؛ لذلك حذارِ ثم حذارِ منْ أنْ تتصرَّفَ بمأمنٍ من الدنيـا؛ لأنَّك لا تعلمُ ما ينتظرُك في المسـتقبل، فقد يأتي عليك يومٌ تُصاب بمرضٍ يضطرُّك إلى السفرِ فوراً للعلاج، ولكيْ يتمُّ الأمرُ يلزمُك الحصولُ على توقيعِ شـخصٍ ظلمتَه في الماضي ظلمـاً كبيراً قد لا يزالُ يعاني من تَبِعَاتِهِ.

تذكـروا أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُعجـزهُ شـيءٌ في الأرضِ ولا

في السماءِ، وقادرٌ على الانتقام من الظالمِ بطُرُقٍ تخطرُ على البال، وطُرُقٍ لا تخطرُ على البال ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: 20].

وكما ينسى الظالمُ ظلمَه، فالمظلومون أيضًا ينسونَ أنَّ هذا الظالمَ الذي ظلمَهم سوفَ يدفعُ الفاتورةَ، فيَلجؤون إلى الأساليب الانتقاميَّةِ متناسينَ المنتقمَ الجبَّارَ، وهذا ضعفُ إيمانٍ؛ فأسماءُ الله الحسنى ليست اعتباطيةً، إنما هي جزءٌ من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنْ أسماء الله الحسنى «الحقُّ»، وهذا يعني أنه يُحِقُّ الحَقَّ، والحقُّ لا يضيعُ وربُّنا الحقُّ.

هناك مقولةٌ يردِّدُها الكثيرون، وهي «مَا ضَاعَ حَقٌّ وَرَاءَهُ مُطَالِبٌ»، أنا شخصياً أختلِفُ مع هذه المقولةِ، فالحقوقُ لا تضيع أبداً سواءٌ طالبْنا بها أم لم نُطالِبْ، ربُّ العالمين وَعَدَنا باسترجاعِ الحقوقِ لأصحابها، ولكنَّه لم يخْبِرْنا كيفَ وأينَ ومتى، بمعنى أنَّ الحقوقَ قد تُرَدُّ فوراً، وقد تُردُّ بعدَ سنواتٍ، وقد لا تُردُّ في الدنيا، إنما يؤَخِّرُها الله سبحانه إلى الآخرة، المهمُّ أنْ نؤمنَ إيماناً كاملاً أنها ستُردُّ، عندما تحاولُ أنْ تنتقمَ ممَّن ظلمَكَ، فأنتَ في الواقع تظلِمُ نفسَك؛ لأنك نسيتَ المنتقمَ الجبَّارَ.

بعـد هذا الشـرحِ فأنـا متأكـدةٌ أنَّ القارئ الآن يشـعرُ بقدرةٍ أكـبرَ على مسـامحة مَـن ظلَمه؛ لأنَّ عـدمَ المسـامحة ينبعُ من شعورنا بأن الصفحَ عن الظالم قد يُضِيع الحقوقَ، ولكن عندما نمتلـئ يقينـاً أنَّ الحقوقَ لا تضيع وربُّنا الحقُّ، عندها سـتصبحُ المسامحةُ أسهلَ بكثيرٍ.

ارمـوا حمولَكم على الله، وسـامحوا، واتركوهـا لله، وثِقُوا أنَّ جَبْـرَ اللهِ عظيمٌ جـداً وإنْ تأخَّرَ، فقط اسـتقيموا وتذكَّرُوا أنَّ الجـزاءَ منْ جنسِ العملِ، وإنْ لم تسـتطيعوا فِعْلَ الخيرِ للناس فاتركوهم وشـأنهم، و لا تَتَسَـبَّبوا في الأذى لأحـدٍ؛ حتى تَهُبَّ عليكم رياحُ الرحمةِ والخير التي تشتهيها السُّفنُ، ويكفيكمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرَّ الرِّيحِ.

والحمدُ لله على نعمةِ التمعُّن في القرآنِ .

المراجع:

- الدجالـي، ماجـد (2020م)، مـا الفـرق بيـن كلمـة ريـح ورياح في القرآن الكريم؟ عالم الثقافة. الرابط المباشـر worldofculture2020.com/?p=33242.



حـبُّ المالِ، واللهـثُ وراءَه، ووراءَ الجاهِ، وتجميعُ الثـروةِ أكوامـًا، وتقييـمُ النـاسِ بمعيـارِ الماديـاتِ حسـبَ أوضاعهم الماليـةِ، وتحديدُ طريقـةِ التعاملِ معَ الناسِ حسـبَ حجمِ المصلحةِ (المادية) المرجوَّةِ منهم ... والكارثةُ أنَّ هـذه الأمورَ أصبحتْ في نظَرِ أهلها شـطارةً وذكاءً اجتماعيًّا وفهلـوةً! وأنَّ المصلحـةَ هـي الصَّدِيـقُ الوحيدُ للإنسـان، أما عداها فهو دائمـًا محلُّ بيعٍ وشراءٍ، وعرضٍ وطلَبٍ.

زِدْ على ذلك التمنُّنَ على الناسِ بالعطاء، وتذكيرَهم بفضلِ الشـخصِ الذي يُعطيهـم، وكأنَّه ينتظرُ منهـم أنْ يُبَجِّلُوه تبجيلَ العبْدِ للمعبودِ -والعياذُ بالله!-.

كلُّ هذهِ الأمورِ موجودةٌ منذُ قديم الأزل، فقد وردَ في سورة البقرةِ أنَّ بني إسرائيل عندما علموا أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدْ أرسلَ لهم طالوتَ ليكونَ ملكـًا عليهم، تَعَجَّبوا من هذا الأمرِ، وقالوا ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ [البقرة: 247]. بنو إسـرائيل زكَّوْا أنفسـهم واعتبروا أنهم الأجدر بالمُلك لمجرد أنهم يملكون المال، وفي تكملة الآية نتعرف على سـبب اختيـار طالوت ملكـًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 245].
أي أنَّ اللهَ أعطاه العِلمَ الذي هو أهمُّ من المال.

ويتكــرَّرُ نفسُ الأمر في ســورة الكهف عندمـا زكَّى صاحبُ البستانِ نفسَه، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّ الله أعطاه المالَ ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]. جعلَ كثرةَ المال سببـاً للعِزّة ولا يدري أنَّه بهذا الجهلِ يظلمُ نفسَه؛ لأنه ارتكبَ إثمـاً كبيراً، وهو الأمــنُ مِن مكرِ الله، فقدْ ضَمِنَ هذا الشــخصُ أنَّ مالَه لنْ يزولَ أبداً، بل أَنَّه ســيجدُ المزيدَ من العطاءِ منْ ربِّ العالمين، وكأنَّه أخــذَ مَوْثِقــاً من اللهِ بذلــك! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهـف: 35 -36]. لطالمـا رأينـا من الدنيا ما يجعلُنا لا نضمنُها، ولكنَّ هناك مَن لا يتعلَّمُ الدرسَ!

وهنـا نرى أنَّ العِلمَ هــو الثروةُ الحقيقيَّةُ، وليـسَ المالُ كما يظــنُّ الأغلبيــةُ، والمقصــودُ من العِلــم هو المعرفــةُ والاطِّلاعُ علــى أمــورِ الدينِ والحيــاةِ، وإدراكُ فضْلِ الله علينا، وسُــنَّتِه في كونِه، وليسَ الشــهاداتِ العلميةَ لأنَّ الشهاداتِ ليستْ مقياســاً حقيقيــاً للعِلم، ولا للأخلاقِ، كما أنَّها أصبحتْ تُباعُ و تُشــترى مع الأســفِ الشديدِ. هناك أشــخاصٌ فقراءُ جداً لا يملكون إلا

المال، يُفنونَ حياتَهم في الرَّكضِ وراءَ الدنيا، وتجميعِ المال، والسعيِ وراء المُلك والسُلطة والثروةِ والجاه، وفي آخِرِ المطافِ يتوفاهم مَلَكُ الموتِ، ولا يأخذون معهم شيئًا إلى القَبْرِ، ويأتي الورثةُ ليأخذوا الجَمَل بما حَمَل، ويصبحُ مَن جمعَ الثروةَ في طيِّ النسيان، ويكونُ ذا حظٍّ إن وجَدَ مَن يترحَّم عليه!

أمَّا صاحبُ العِلم، فيُورِّثُ عِلْمَه للدنيا كلِّها، ويظلُّ هذا العلمُ منسوبًا إليه في حياته وبعدَ مماته؛ فكلُّنا يعلمُ أبا هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وابنَ القيِّم وابنَ النَّفيس وجابرَ بنَ حيَّانَ، والشيخَ الشعراويَّ، بلْ حتى شكسبير وأينشتاين، ولكنْ لا نعلمُ عن أولادهم وعائلاتهم شيئًا، ولا نعلمُ إنْ كانوا أصحابَ مالٍ أم لا. وإذا أردنا أنْ نعلمَ عنهم شيئًا فيجبُ أنْ نقرأَ عنْ حياتِهم، ونبحثَ فيها. ولكنَّا نعلمُ مَن هم، ولا تزالُ أسماؤهم متداولةً في مناهج الدراسة، في حين لا نَعلَمُ شيئًا عن الأغنياء الذين عاصروهم، وذلك لأنَّ العلمَ يجعلُ صاحبَه يعيشُ إلى الأبد، بينما صاحبُ المالِ يَفْنَى وينتهي قبلَ أنْ يفنى مالُه. اسمُ العائلةِ تَحْمِلُهُ أعمالُك، لا يَحْمِلُه أولادُك ولا مالُك، فلا تكُنْ من الجاهلين الذين ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35]، فكانَ ردُّ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليهم ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

بالمختصر: للمـالِ طرقٌ متعددةٌ، وهذهِ الطرقُ تشـملُ كلَّ شيءٍ مشروعٍ وغيرِ مشروعٍ بما فيه الدعارة وتجارةُ المخدراتِ، في حيـن أنَّ للعلـم طريقـاً واحداً فقـط لا يَسْـلُكُهُ إلا الجادّونَ المتميِّزونَ، وهمْ أصحابُ الثروةِ الحقيقيُّون.

وهنـاكَ معضلةٌ كارثيةٌ اسـتفحلتْ كثيراً، فقـدْ أصبحَ بعضُ الناس يُراؤون بالصدقاتِ من أجلِ الشُّهرةِ والدعاية، وينشرونَ صـوراً وفيديوهاتٍ لهم عبرَ مواقـعِ التواصلِ الاجتماعيِّ وهم يُغدقون المالَ صكـاً ونقـداً للمحتاجينَ والجمعيات الخيريةِ، ويسـتمتعونَ بقراءة تعليقاتِ المديح والإطراءِ على ما قاموا به من مَنٍّ وأذَىً ورياءٍ مغلَّفٍ بغلاف الكرَمِ الزائفِ.

ولمْ يقفِ الأمرُ هنا، بل إنَّ هناك بعضَ الآباء الذين يَمُنُّون على أبنائهم بالنفقةِ عليهم! هذا الأبُ الذي يسيرُ على نهجِ قارون ظنـاً منـه أنَّه هو مَن صنعَ المـالَ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: 78] يجهـلُ أنَّ إنفاقَـه على عائلته إنَّما هو فـرضٌ عليه، وواجبٌ إلزاميٌّ سـوف يُحاسَب عليه يومَ الحسابِ. لم يكنْ هذا الإنفاقُ تَفَضُّـلاً منه أبداً، بل هـو دائمـاً فرضٌ على ربِّ العائلةِ، ويأثَمُ إن لم يقمْ به على أكملِ وجهٍ، وهوَ قادرٌ على ذلك.

عـنْ أبي هريـرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسـولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- : «**دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرَاً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**»[1] (رواه مسـلم)، وفي نفس السياقِ قال العلَّامة ابنُ عثيمينَ رحمةُ الله عليه: «الصَّدَقَةُ الوَاجِبَةُ عَلَى الْأَهْلِ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرَاً» (شرح رياض الصالحين 4/ 389).

أرجو أنْ يسـتوعبَ الآباءُ هـذا الكلامَ جيِّـداً، وأنْ يتذكروا قولَـه تعالـى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: 180].

ويتصـورُ هـؤلاء الآبـاءُ أنَّهـم أصحـابُ الـرِّزقِ، وأنهم إنْ أمسـكوا أيديَهم فسـتموتُ عائلاتُهم من الجـوع! وكأنَّهم هم مَن يَرْزُقُ عائلاتِهم، وفي هذه المواقفِ دائمـًا أَسْـتَحْضِرُ الآيةَ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، وهي الجملةُ التي قالها فِرْعَونُ لقومِه، فماذا كانتْ نتيجةُ هذا التَّصرُّفِ؟ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعـات: 25]. عقـابٌ في الدنيا والآخـرةِ على هذه

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك، وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم (2/ 692)، رقم (995).

العقليَّـةِ الفرعونيَّةِ الظالمةِ التي أنكرت فَضْلَ اللهِ، ونسِـيَتْ، أو ربَّما تناسَت، أنَّ اللهَ هو الرزَّاقُ، وأنَّ الأبَ ما هو إلا جنديٌّ من جنودِ الله، سخّره الله ليُنفِّذَ مشيئتَه عن طريق هذا الأبِ الذي لا حوْلَ له ولا قُوَّةَ أمامَ مشيئة اللهِ.

وكانـتْ نتيجـةُ تبنِّي مثلِ هـذه العقلياتِ أنْ أصبـحَ الجميعُ يُقيّمونَ أنفسَـهم، ويُقيّمـونَ بعضَهم البعضَ مـن مَنظورٍ ماديٍّ بحْـتٍ، وأصبحَ مالـكُ المال يرى نفسَـه أنَّه أفضـلُ من غيره، وأصبحَ قليـلُ المالِ يُلازِمُه الشـعورُ بالنَّقص الـذي يمنعه مِن أنْ يعيـشَ حياةً طبيعيةً ملؤها الرضـا والبركةُ والقناعةُ، وهكذا أصبحتْ تربيةُ الأبنـاء تحدِّيًا حقيقيًّا أمامَ هذا المنطقِ الماديِّ الـذي بـاتَ مع الأسـفِ الوضـعَ الطبيعـيَّ، في حيـن أضحتِ القناعـةُ هي الاسـتثناءَ الـذي يعتـبرُهُ البعضُ سـذاجةً وانهزامًا ومضيعةً للفُرَصِ.



المالُ والتَّجَبُّر

هنـاك علاقةٌ طرديَّـةٌ بين المـال والتجبُّرِ، فكلَّمـا زادَ المالُ عنـد الإنسـان ازدادَ شـعورُهُ بالتجبُّـر، وإحساسُـه بالعظمـةِ، ورغبتُه بالسـيطرةِ والنفوذِ، ونسـمعُ بعبارة «شَـخْصٌ مَسئولٌ» ونرى كيف أنها تُطرِبُ آذانَ صاحِبِها، وتجعلُه يمشي الخُيلاءَ،

وينظرُ لغيره باستعلاءٍ، ويتجمَّع حوله المنافقون والمتملِّقون وأصحابُ المصالِحِ. هذا وقعُ العبارةِ في نفوس البَشَرِ، ولكن انظروا إلى وَقْعِها عندما نَسْمَعُها ونقرأُها بلغةِ القُرآن ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 24] تملَّككم الخوفُ، أليس كذلك؟! وكأنَّنا نستشعرُ رهبةَ اللحظة.

وكالعادةِ لا يخلو القرآنُ من سردِ السِّيَرِ حول هؤلاءِ الطُّغاة: مِنْ أمثالِ قارونَ وفرعونَ والنمرودَ، وكلُّهم يجمعُهم أمرٌ واحدٌ، وهو أنَّهم تجبروا بمالٍ ومُلك أَعطاه الله لهم، ونسبوه لأنفسهم، واستخدموا سُلطاتهم استخداماً سيِّئًا قادَهم إلى أسوأِ ما تكونُ عليه الخواتيمُ.

فنجدُ قارونَ يخرجُ على قومه في زِينَته مُختالاً فخوراً، حتى تَمَنَّى الكثيرونَ أنْ يحظَوْا بحظِّه: ليسَ من الأخلاقِ، ولا من الدِّين، ولا مِن العِلم، بل حظُّه من المال ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: 79]. ولمْ يكنْ قارونُ مزداناً بزينته فحَسْب، بلْ إنَّ مالَه أوصَلَه إلى مرحلةِ البغْيِ والفَرَحِ الذي لا يُحِبُّه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ

لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ [القصص: 76]. وكان ردُّه عليهم ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: 78] مُتجاهلاً ومُنكراً فضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه.

أكادُ أجزمُ أنَّ أغلبَ القرَّاء الآن يستحضرُونَ شخصًا معيَّنًا وهمْ يقرأونَ هذه السطورَ! هذا ما فَعَلَتْهُ كَثْرَةُ المالِ بقارون، وانتهى به الأمرُ أن خَسَفَ اللهُ به وبِدارِهِ الأرضَ، ولم يَعُدْ له ولا لمُلكه وُجودٌ.

ونجدُ فرعونَ الذي كان يتباهى بأنَّ لهُ مُلكُ مِصرَ ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الزخرف: 51]. مُلك فرعونَ جعلَهُ يطغى ويقولُ: إنَّه إلهٌ، وأجبرَ قومَه على عبادتِه، ونتذكرُ قصَّةَ ماشطةِ بنتِ فرعونَ التي أحرَقَها وأولادَها؛ لأنَّها أبَتْ أنْ تتَّخِذَهُ إلهًا، ومِن شدَّةِ غُرور فرعونَ وتعاليه أنَّه استهزأَ بالنَّبي موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولم يقتنعْ أنْ يكونَ شخصٌ مثلُه مبعوثًا منْ ربِّ العالمين ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: 52]. فرعونُ امتهنَ النبيَّ موسى لا لشيءٍ إلَّا لأنَّه ليسَ صاحبَ مالٍ ولا مُلك ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: 53]. وفي النهايةِ كانتْ خاتِمتُه

مُهينةً، وهي الموتُ غرقًا، تلكَ الأنهارُ التي كان يملِكُها والتي كانتْ تجري مِن تَحْتِه، أجراها اللهُ مِنْ فوقه؛ فأهلكَه الله بالمُلك الـذي كانَ يتباهى به، وهذا واقعٌ ويَحْـدُثُ فعلاً، ففي كثيرٍ من الأحيانِ يكونُ المالُ سـببَ هلاكِ صاحبِه؛ لأنَّه انشغلَ بالمال، واستخدمَه في غيرِ ما يُرضي اللهَ.

اسـتصغارُ فرعونَ للنبيِّ موسـى يُذكِّرنا بما قالَه كفارُ قريشٍ عندمـا دعاهـم الرَّسـولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإسـلام؛ حيـثُ إنَّهـم اسـتكثروا فيـه هذا الشـرفَ، لأنَّه لم يكـنْ من أغنيـاءِ مكةَ ولا الطائـفِ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، بلْ إنَّهم اسـتهجَنوا تصرُّفاتِه البشريةَ وتعجَّبوا من عَـدَمِ وُجود مَلَكٍ معه، وكيف لم يُلقَ عليه كنزٌ أو أَمْلاكٌ ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: 7 – 8]. هوَ نفسُه المقياسُ الماديُّ الذي يستخدمُه الكثيرون اليوم للحُكـم على الناس وتقييمِهم، وتحديـدِ علاقاتِهم الاجتماعيَّة معهـم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعـام: 165]. بـلْ إنَّ هـذا المقيـاسَ أصبـحَ مَدعاةَ الأفضليَّةِ والسخريةِ بينَ الناسِ، وهي طبيعةُ البشرِ:

﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: 31].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام: 167].

ونجدُ النمرودَ الذي آتاهُ اللهُ المُلكَ يتفاخرُ بأنه يُحْيِي ويميتُ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 257] ويقصِدُ هنا أنَّ بيده أنْ يُقرِّرَ مَن يُقْتَلُ ومن يُبقى حيّاً. وعندما تحدَّاه النبيُّ إبراهيمُ أنْ يأتيَ بالشمسِ منَ المغربِ، شعرَ بالعَجز ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: 258]. النمرودُ على كل مُلكِه وجَبَرُوتِهِ ماتَ بسَببِ بعوضةٍ، ولم يُغْنِ عنه مالُه ولا مُلكه من اللهِ شيئًا، ولم يأخذْ معه شيئًا مِن مُلكِه إلى القبْرِ.

المتباهي بالمالِ هو شخصٌ أجوفُ هشٌّ فارغٌ لا يساوي شيئًا دون هذا المال، وينتهي بزواله؛ لأنه وضعَ قيمتَه في ماله وليس في عقلِه ودينه وخُلُقه وعِلمه، وأمثالُ هؤلاء كثيرونَ في واقعنا، ومتواجدون في كلِّ مكانٍ، وللأسف فإنَّ هؤلاء يجهلونَ معنىً مهمّاً جداً، وهو (الإملاءُ)، فكثيراً ما يُمْلِي اللهُ للظالِمِ، ويُوهِمُه أنَّه على حقٍّ؛ ليستمِرَّ في ظُلْمِه، حتى إذا أَخَذَهُ لم يُفلِتْه، وكذلك الحالُ عندما يُمِدُّ اللهُ بعضَ الأشخاصِ

بالأمـوالِ، ويزيدُهم منها، ويسـتمرُّ في إمدادِهـم بالمال، حتى يَتَوَهَّموا أنَّها خيراتٌ لا نهايةَ لها تَتَدَفَّقُ عليهم ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 55-56]. مـن الواضـح أنَّ هؤلاءِ الأشـخاصِ لـم يطَّلِعوا على قصصِ قارونَ وفرعونَ والنمـرود. وفي أغلبِ الأحيانِ ينتهونَ إلى نفسِ الخاتمةِ -والعياذُ بالله-، ويأتي غيرُهم ليعيدَ التاريخَ، وتتكرَّر نفسُ المشاهدِ من جديدٍ.

تَجْدُرُ الإشـارةُ هنا أنْ ليسَ كلُّ مَن ملكَ المالَ والسُّلطة هو شخصٌ سطحيٌّ وجاهلٌ، بل هناك أصحابُ مالٍ ونفوذٍ سخّروا أموالَهم لعملِ الخير، واستخدموا سُلُطاتِهم وصلاحياتِهم فيما يُرْضِي اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ذو القرنيْـن الذي آتاه اللهُ من كلِّ شـيءٍ سـببًا، لم يتكاسـلْ مُغـتراً بهـذه الخصوصيةِ، بل سـعى وضـربَ في الأرضِ ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85]، ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89]، ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهـف: 92]، فقدْ جابَ ذو القرنيـنِ أقاصيَ الأرضِ، ورأى فيه النَّـاسُ أنَّه المُنقـذُ المُخلِّصُ لهـم، ولكنه لم يسـتغلَّ إمكاناتِه لإذلال النـاس، بل علـى العكس ذكَّرهم بقوتِهـم عندما طلبوا منـه المسـاعدةَ ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهـف: 95]. وتسـاعَدَ معهم،

وأخذ يُرشدُهم ويوجِّههم ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: 96]. وهذا حالُ القائدِ المُوجِّه للرعيَّةِ، الذي يجعلُهم يُدركون أنَّهم لا تنْقُصُهم القُدراتُ والإمكانياتُ، ويظهرُ تواضعُ ذو القرنينِ في ردِّه على مديحِ الناس لقُوَّتِه وقُدْرَتِه ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ [الكهف: 95] حيثُ إنَّه ذكَّرَ نفسَه وذكَّرَهم أنَّ هذا فضلُ اللهِ، وأنَّه لا يملكُ منْ أمْرِه شيئًا. ما أجملَ أنْ نجعلَ هذه الآيةَ رَدَّنا عند مديحِ الآخرين لنا!

ولا يَفُوتُنا أنْ نتكلَّم عن مُلك النَّبيِّ سليمانَ الذي لم يُعْطِهِ اللهُ لأحدٍ مِن قَبْلِه، ولنْ يَنْبغِيَ لأحدٍ مِن بعده. فقدْ سخَّر له اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الرِّيحَ، والطيرَ والجنَّ والعفاريتَ، كلٌّ تحتَ سيطرتِه يَأتَمِرُونَ بأمْرِه. وكذلك علَّمَهُ اللهُ مَنْطِقَ الطيرِ، وجعلَه قادراً على فهْمِ لغةِ الحيوانات، ولذلك استطاعَ أنْ يَسْمَعَ النَّمْلَةَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: 18]. إدراكه لقدرته على فهْم كلام النملة لم يجعله يغْتَرَّ وينسب هذه القدرة لنفسه، كما فعل قارون وفرعون، بل شكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على هذا الفضل كما فعل ذو القرنين ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19]. علينا أنْ نردِّدَ هذه الآيةَ في كلِّ مرَّةٍ نُوَفَّقُ في عمَلٍ ما، أو نُحقِّق إنجازاً أو نجاحًا باهراً؛ حتى لا يَتَسَلَّل العُجبُ والغرورُ إلى نفوسنا، وننسى أنَّ هذا كُلَّهُ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا، وهو نعمةٌ رَزَقَنَا إيَّاها مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ لنَا ولا قُوَّةٍ.

وتذكروا أنَّه كما رزَقَنا هذه النعمةَ، بإمكانه جداً أنْ يَسْلُبَها منَّا إنْ لم نُحسِن جِوارَها، ونَشْكُرَ اللهَ عليها، فكما يقولُ: كُن فيكونُ، إذا أرادَ أنْ يقولَ: زُل فيزولُ.

معَ كلِّ المُلك الذي كان لسليمانَ إلا أنَّه لم يُصِبْهُ العُجْبُ، ولم يُغرِهِ المالُ؛ لأنَّ الله آتاه نعمةً عظيمةً، وهي شُكرُ اللهِ على نِعَمِه، وحمدُهُ عليها، فعندما أرسلتْ له ملكةُ سبأٍ بهديةٍ غضِبَ، وأرسلَ لهم جنودَه ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ [النمل: 36]. وكانَ له ذاتُ الموقفِ عندما مرَّ بموكِبه على بساطُ الرِّيح، فنظرَ إليه أحدُ الفلاحينَ وقال «لَقَدْ أُوتِيَ آلُ داوُدَ مُلكًا عظيمًا»، فقالَ لهُ النبيُّ سليمانُ: «لَتَسْبِيحَةٌ وَاحِدَةٌ يَقْبَلُهَا اللهُ مِنْكَ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (أبو فارس، 1410 هجرية).

ويسردُ لنا القرآنُ في سورة القلم قصَّة أصحابِ الجنَّة الذين كفروا بنعمةِ الله عليهم. فقدْ كانَ والدُهم أبـاً صالحاً كريماً، وكانَ يملكُ بُستاناً، وكانَ يجودُ بمحصولِ البستانِ للفُقراء والمحتاجينَ، فلما تُوفِّى امتنعَ أبناؤه عن إعطاءِ الصدقاتِ للفقراءِ، وطَرَدُوهم ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: 17 -18]. فكانَ نتيجةُ هذا التصرفِ أنْ تحوَّلَ البستانُ بينَ عَشِيَّةٍ وضُحاها إلى أرضٍ سوداءَ، وكأنْ قد أُضرمت فيها النارُ واحترقَ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: 19 -20]. فكانتْ صدمتُهم كبيرةً، فقدْ ضاعتْ جَنَّتُهم، ولم يَعدْ يأتيهم أحدٌ ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ (القلم: 24).

أصحابُ الجَنَّةِ غفلوا عن أمرٍ مُهمٍّ جِداً يغفُلُ عنه الكثيرونَ من أصحابِ المال في عصرِنا الحالي، وهو أنَّ المالَ ليسَ كلُّه لهم، وأنَّ جزءاً من هذا المالِ هو مالُ الفقراء، بمعنى أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل رِزق الجميعِ، ووضعَ نصيبَ الفقراءِ عند الأغنياءِ ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: 19]، ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: 24 -25]. لاحظوا أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استخدمَ كلمة «حقٌّ»، ولم يقلْ جزءاً، أو حصَّةً، وهو حقٌّ «معلومٌ» أيْ يعلمُه الجميعُ، ولا يستطيعُ

إنكارُه أحدٌ، والحكمةُ الإلهيَّةُ واضحةٌ هنا، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُريدُ للأغنياء أنْ يستحْوِذوا على المالِ دونَ غيرهم؛ كيْ لا يكونَ هناك سلطانٌ لأحدٍ، ولا تكونَ السُلطةُ حِكراً على أحدٍ:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: 7].

والسببُ وراءَ ذلك هو مَنْعُ تولُّدِ الأحقادِ والضغائنِ في المجتمع، والتي تنتجُ بسببِ الفروقاتِ الاجتماعيَّةِ وما يعقُبُها من غطرسةِ طرفٍ على طرفٍ، وعلوِّ طرفٍ على طرفٍ، ناهيكَ عن نظرةِ الدُّونيَّة وعُقَدِ النَّقصِ وغيرها من عاداتِ الجاهليَّةِ، ومنْ هنا نفهمُ أنَّ كلمةَ «محرومٍ» ليسَ المقصودُ بها حرمانًا منْ طرفِ اللهِ سبحانَه -والعياذُ بالله-، بلْ هو حرمانٌ قامَ به أصحابُ المالِ الذين حرَمُوا الفقراءَ حقوقَهم، مُعلِّلين تصرُّفَهم بأنَّ إطعامَ الفقراءِ ليستْ مهمَّتَهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: 47]. ولذلك كانَ منَ البديهيِّ أنْ يُعاقَب أصحابُ الجَنَّةِ بضياعِ جنَّتِهم؛ لأنهم منعوا حقوقَ الفقراءِ أنْ تَصِلَ إليهم، فهو درسٌ مهمٌّ للمنّانين الذين يُتبعونَ صَدَقَاتِهم بالمَنِّ والأذى، فيبطلونها، ويُضيِّعون أجرَها، ولكنْ ليسَ كلُّ الدروسِ تُستوعَبُ للأسفِ!

ولكـنْ ربُّنـا ذو الرحمةِ غفـورٌ رحيمٌ، وهو يقبـلُ التوبةَ عن عبـاده ويعفو عن كثيرٍ، بالاعتراف بالذَّنبِ والتوبةِ والعودةِ إلى جـادَّة الصوابِ يغفِـرُ اللهُ لنا، فعندما تابَ أصحـابُ الجنَّة إلى الله، وسـاروا على نَهْج والدهم، تابَ اللهُ عليهم، وعادتْ إليهم جَنَّتُهم ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ [القلم: 32].

تَقْيِيدُ النِّعْمَةِ

والنِّعْمةُ قَيدُها الشُّـكرُ، ولكنَّ مُشـكلتَنا هـي الإِلْفُ، فنحنُ نألفُ النعمـةَ، ونعتادُ عليهـا، ونتعاملُ معها كأمـرٍ بديهيٍّ دائمٍ مسـلَّمٍ به حتى نتفاجـأَ ذاتَ يـومٍ بزوالها، وفي بعـض الأحيانِ لا ترجعُ هذه النعمةُ بسـببِ سُـوءِ اسـتخدامِنا لها، فالتي متَّعها الله بالجمـالِ قـد لا تصونُ هذه النعمةَ، وتسـتخدمُها كوسـيلةٍ للوصـولِ إلـى وظيفـةٍ بـدلاً عـن الخـبراتِ الأكاديميَّـةِ، أو الإداريَّـةِ، أو العلميَّةِ، والذي رزَقَـهُ الله بنعمةِ البصرِ في حين أنَّ هناك مَن حُرِم منها، قدْ يستخدمُها في مشاهدةِ المواقع الإباحيَّةِ -والعياذُ بالله-، والذي أعطاهُ الله المُلكَ والمالَ والسلطانَ، قد يستخدِمُهم ليطغى ويَظلِمَ ويجورَ ويَسودَ، ولكنَّ هناك حسابٌ علـى هذه النِّعَم ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [التكاثر: 8]. وهنا نـأتي إلى مفهومٍ جديدٍ للحرمـانِ، وهو أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يمنعُ

عنا أمراً ما؛ لأننا لنْ نحسنَ التصرُّفَ فيه: وما يدريك ما يَفْعَلُهُ المريضُ إن رُزقَ نعمةَ الصحَّةِ؟ وما يُدريكَ ما يفعلُهُ الفقيرُ إنْ تحصَّلَ على المال؟ وهذا يعني أنَّ الحرمانَ هو العطاءُ بعينِهِ، ومنها نقولُ: إنَّ اللهَ لمْ يحرمْنا شيئًا أبداً، و:

رُبَّ خيرٍ لم تَنَلْهُ   كَانَ شَرّاً لَوْ أَتَاكَ

هناكَ مثلٌ يقول: (لَا يَحْسِدُ الْمَالَ إِلَّا أَصْحَابُهُ)، وهوَ أمرٌ صحيحٌ، فصاحبُ البُستان في سورةِ الكهفِ كانَ معجباً بجَنَّته، ويتباهى بها، ولمْ يَحْمَدِ اللهَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليها؛ فزالتْ منه ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 38]. مِن المهمِّ أنْ نردِّدَ هذه الآيةَ، كلَّما استشعرنا أنعُم اللهِ علينا، لأنَّ بقاءَ النعمةِ مرهونٌ بالديمومةِ على الحَمْدِ، وحُسنِ الجوارِ، عندما رأى النبيُّ سليمانُ عرشَ مَلِكَةِ سبأٍ مستقرّاً عنده، لمْ ينشغلْ بالنِّعمة ويَنسى المُنعِمِ، بل ذكَّرَ نفسَه على الفورِ بفضلِ اللهِ عليه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]. نحنُ نشاهدُ حفلاتِ النجاحِ والتخرُّجِ، وتوديعِ العزوبيَّةِ، بلْ وحتى حفلاتِ الطلاقِ، أنا لا أعترضُ على هذه الحفلاتِ، ولكن أرجو أن يُرافِقَها حمدٌ لله بركعتي شكر، أو صدقةٍ؛ لا تجعلِ الفرحةَ بالنعمةِ تُنسيك المُنعِمَ الذي أنعمَها.



الكلُّ يُرِيدُ الْمَالَ

الرغبةُ في المالِ ليست خطأً، ولا حرامًا، وهي أمرٌ فِطريٌّ فينا، فنحنُ كبشرٍ جُبِلنا على حبِّ الشهواتِ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: 14]، والمال هو زينة الدنيا ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46].

ولكنْ علينا العملُ للآخرةِ؛ لأنَّ الدنيا ممرٌّ، بينما الآخرةُ هي المَقرُّ، ولذلك علينا تسخيرُ المالِ والعلمِ والمُلكِ وكلِّ النِّعَمِ فيما يُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنَّنا لن نجدَ إلا أعمالَنا الصالحةَ، وكما قال تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كذلكَ قالَ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، أموالُنا وأولادُنا الذين تزدانُ بهم حياتُنا الدنيا، لنْ يكونَ لهم نفعٌ في الآخرةِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89]. حُسنُ المئابِ يجبُ أنْ يكونَ هو الهدفَ الأسمى الذي نُسخِّر لهُ كلَّ الإمكاناتِ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

صحيحٌ أنَّ المالَ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا، ولكنْ للآيةِ تكملةٌ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ

رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: 46]. ما هي الباقياتُ الصالحاتُ؟ عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الرَّسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ**»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «المِلَّةُ»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالْحَمْدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»(1) (السيوطي، 911هـ). ما يَعمَلُه الْمُسْلِمُ مِنْ أعمالٍ صالحةٍ هو الباقياتُ الصالحاتُ التي تبقَى له ذُخراً، ويُؤْجَرُ عليها يومَ الحسابِ.

يقولُ الدكتور مصطفى محمود رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ العارفَ الحقيقيَّ هو الذي يُدرك أنَّه كلَّما ازدادَ قوَّةً أو مُلكاً أو مالاً أو علماً يجبُ أنْ يتذكَّر أنَّها من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليستْ بمجهودِهِ وذكائه وشطارتِه، وهذا ما أدركَتْهُ الفئةُ مِن قوم قارونَ الذين آتاهمُ اللهُ العِلم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: 80]. النَّجاحُ هو في الواقعِ تسخيرٌ مِنَ اللهِ لجنودِهِ حتى يَنفُذَ أمرُه على خلقه.

---

(1) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (18/ 241)، رقم (11713)، وهو حسن لغيره، والحاكم في «المستدرك» (1/ 694)، رقم (1889)، والسيوطي في «الجامع الصغير» (1839)، واختلف في تصحيح إسناده، وهو حسن لغيره.

العـارفُ الحقيقـيُّ يعي دائمـًا أنَّ ما عندَه ليـسَ ملكَه، ولذلك يظـلُّ على خَوْفٍ من مَكْرِ اللهِ أنْ يَسـلُبَه منه كما أعطاه إياه. وكما وردَ في سورةِ يوسفَ، فالمحسنونَ هم ذوو الحكمةِ والعِلْمِ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: 22]، ونَـرى ذاتَ الأمرِ معَ سـيِّدنا لوطٍ في سـورةِ الأنبياء ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: 74]، وكذلـك الحـالُ مـعَ داودَ وسـليمانَ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: 15]، ومعَ سـيدنا موسـى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: 14]. لاحظـوا أنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لم يقل: آتيناه مالاً. ألقِ نظرةً علـى ما تملِكُ مِن مالٍ، وقارِنْه بما تملكُ من حِكمَةٍ وعِلمٍ، ثمَّ احكمْ بنفسك على درجةِ إحسانِك!

بدلاً من أنْ نسـألَ اللهَ الكثرةَ في المال، فلنسـألْه البركةَ؛ لأنَّ البركةَ في الشيء تزيدُهُ وتطيلُ في بقائه، بينما الكثرةُ مصيرُها إلى نقصانٍ، العبرةُ في البركةِ، وليس في الكثرةِ؛ لأنَّه لوْ كانتِ العبرةُ في الكثرةِ لكانت القوارضُ هي مَن يحكمُ العالَمَ اليومَ!

مختصرُ الحديثِ: نحنُ لا نملكُ شيئـًا؛ لأنَّ المُلكَ للهِ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن

وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: 107]، كلُّنا فقراءُ للهِ مهما اغتنينَا، ونحنُ نعيشُ بفضلِ اللهِ وسِتره ورحمتِه، وليسَ بأموالنا وأملاكنا، فالملكُ لله وحدَه، ولنتذكَّرْ: ﴿ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [الزخرف: 32]، وعلينا أنْ نفرحَ بهذه الرحمةِ ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: 58].

والحمدُ لله على نِعْمَةِ القُرْآنِ.

المراجع

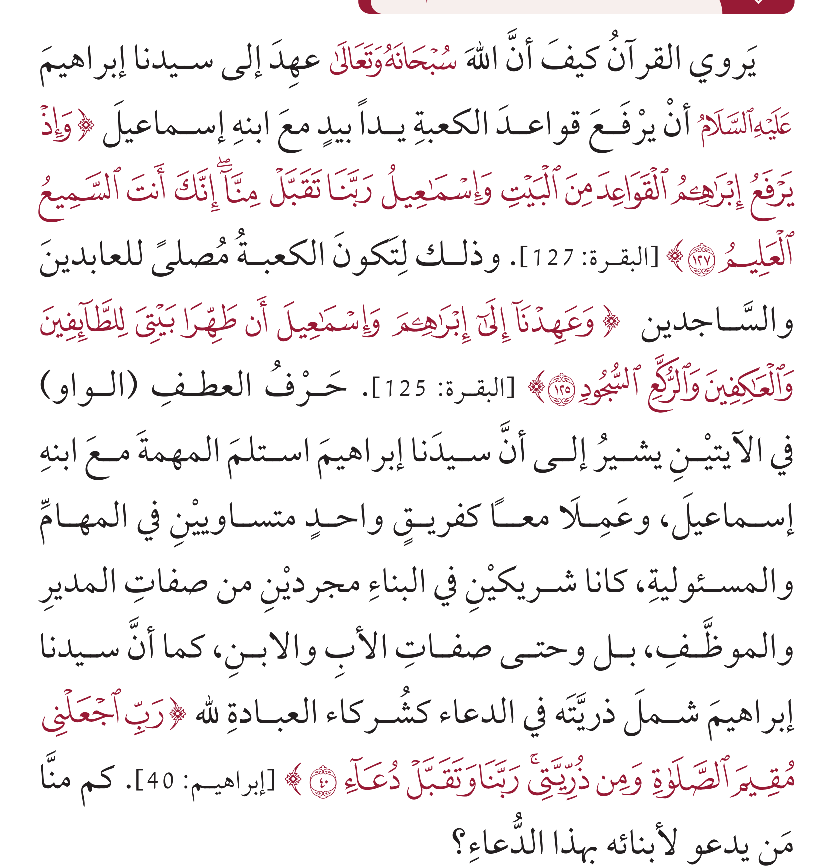
- أبو فارس، ورام، مسعود بن عيسى (1410 هجرية). تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام).
- السيوطي (ت 911)، الجامع الصغير 992، صحيح.
- مسلم (ت 261)، صحيح مسلم 995.



كَثيراً ما نقرأُ عن طُرُق التربيةِ الحديثةِ للأبناءِ، ونشاهدُ العديدَ من المحاضراتِ عن أصولِ التربيةِ وتَنشِئة الأبناءِ تنشئةً صحيحةً، كما أنَّنا لا نَنْفَكُّ نلجأُ إلى مصادرَ أجنبيةٍ غربيَّةٍ تشكَّلت في ظروفٍ وثقافاتٍ مختلفةٍ عن ثقافتنا الإسلاميةِ، ونبتعدُ عن الدِّين والشَّرع والقرآنِ الشاملِ الذي يوفِّرُ لنا كلَّ احتياجاتِنا في كلِّ أوجهِ الحياةِ، فالمتمعِّنُ في القرآنِ يجدُ منهجيةً ربانيةً شاملةً لتربية الأبناءِ بطرقٍ بسيطةٍ ومباشرةٍ خاليةٍ من التعقيدِ العصريِّ الذي يخصِّصونَ له المحاضراتِ، ووِرَشِ العَملِ والندواتِ، يُحَدِّثُنا القرآنُ الكريمُ عنْ علاقةِ الأنبياءِ بأبنائهم، كما يَسْرُدُ لنا قصصاً عن طريقةِ تعامُلِ الصالحين مع أولادهم وبناتِهم، فأرجو أنْ تعطيَنا السطور القادمةُ ما يقطعُ الحجَّة أمامنا؛ حتى لا نلجأَ إلى حلولٍ بديلةٍ مقتبسةٍ عن ثقافاتٍ دخيلةٍ نُجْبِرُ أنفسَنا على التلاؤمِ مع معاييرها.

يحدُّثنا القرآنُ عن تعاملِ الأنبياءِ والصالحينَ مع أبنائهم، وكيفَ أنَّ العلاقةَ بينهم كانت مبنيَّةً على أساسِ الصداقةِ والأُلفةِ، وتَبادُلِ الحبِّ، والتبادلِ المشتركِ للثِّقة والمسئوليةِ. السطورُ التاليةُ تقدِّمُ سرداً لقصصِ الأنبياء الآباءِ كلٌّ على حِدَةٍ، نبدأها بأبي الأنبياءِ الخليلِ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الأبُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ



يَروي القرآنُ كيفَ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عهِدَ إلى سيدنا إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يرْفَعَ قواعدَ الكعبةِ يداً بيدٍ معَ ابنهِ إسماعيلَ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: 127]. وذلك لِتكونَ الكعبةُ مُصلىً للعابدينَ والسَّاجدين ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: 125]. حَرْفُ العطفِ (الواو) في الآيتيْنِ يشيرُ إلى أنَّ سيدَنا إبراهيمَ استلمَ المهمةَ معَ ابنهِ إسماعيلَ، وعَمِلَا معاً كفريقٍ واحدٍ متساويَيْنِ في المهامِّ والمسئوليةِ، كانا شريكيْنِ في البناءِ مجرديْنِ من صفاتِ المديرِ والموظَّفِ، بل وحتى صفاتِ الأبِ والابنِ، كما أنَّ سيدنا إبراهيمَ شملَ ذريَّتَه في الدعاء كشُركاء العبادةِ لله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم: 40]. كم منَّا مَن يدعو لأبنائه بهذا الدُّعاءِ؟

لمْ يستغلَّ سيدُنا إبراهيمُ كونَه الأبَ لكي يُنصِّب نفسَه قائداً أو مديراً في مهمة بناء الكعبةِ، لماذا غفلَ كثيرٌ منَ المسلمينَ عنْ الاقتداءِ بمثلِ هذه العلاقةِ؟ لماذا لا نشاهدُ الأبَ والابنَ يقومان بعملٍ ما معاً كشريكيْن متكافئيْنِ دون تحكُّم طرفٍ، ورضوخِ طرفٍ آخر؟ من الضروريِّ أن يعزِّز الأبُ من ثقةِ الابن بنفسهِ

وإيمانـهِ بقدراتِـه وإمكاناتِـه، وصَقْـل شـخصيَّتِه، وجعلِه أقوى وأركـزَ وأنضجَ. أمَّا الإفـراط في التَّحكُّم في الابـنِ، والإمعانُ في إسداءِ الأوامرِ إليه، ومَنْعِهِ من إبداءِ رَأْيِه قد يؤدي إلى زعزعةِ ثِقَةِ الابنِ بنفسِـه، وقدْ يمحو شـخصيَّتَه مع الوقـتِ، ويجعلُه عاجزاً عن اتخاذِ قراراته بنفسِه.

لـمْ يَنْتَقِـصْ تواضعُ سـيِّدِنا إبراهيمَ مـعَ ابنِه مـن قيمتِه كأبٍ، أو كنَبِـيٍّ، بلْ على العكسِ توطَّدَتْ علاقَتُهمـا أكثرَ، وظهرَ ذلك جليّـاً في الابتـلاءِ الأعظمِ الذي تعرضَ له سـيِّدُنا إبراهيمُ عندما رأى في المنام أنَّه يَذْبَحُ ابنَه إسماعيلَ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: 102]، لنتأمـلِ العبارةَ ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، أي «مَا رَأْيُكَ بِهَذَا يا بُنيَّ؟» كمْ والدًا في عصرنا يستشيرُ ابنَـه في أمـورٍ أقـلَّ خطـورةً ومصيريةً مـن الذبح؟! مع الأسـفِ يتصرَّفُ معظم الآباءِ حسـبَ عقليةِ فرعونَ الذي قال ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]. هؤلاءِ الآبـاءُ يعتقـدون أنَّ كونَهم آباءً فهذا يجعلُهـم عارفين بكلِّ أمورِ الدنيا، ويحملونَ كلَّ الخـبراتِ والمعارفِ، وأنَّهم أعلمُ وأدرى مـن أبنائهم في كلِّ شـيءٍ، وإذا تجـرأَ الابنُ وقامَ بإبـداء رأيه، أو تصحيحِ معلومةٍ لوالدِه، فإنَّ الوالدَ يثورُ ويغضبُ ويجنُّ جُنونُه، ويعتبرُهـا إهانـةً كبرى لا تُغتفـر! وكأنَّ الابنَ تجـرَّأَ على الذات

الإلهيَّة، وليسَ على بشرٍ مثلِه يخطئُ ويصيبُ.

وهـذا الأمرُ ليس مقتصراً على الآبـاءِ فقط، بل هو صفةٌ يتصفُ بها معظمُ مَن هم في موقعِ سُـلطة، فالمعلمةُ تغضبُ إذا قامت طالبةٌ بتصحيـحِ معلومةٍ مـا، والمديـرُ يغضَـبُ إذا قدم أحـدُ الموظفينَ اقتراحـاً أفضلَ وأكثرَ فعاليـةً، وأحياناً حتى العـمُّ والخالُّ والعمةُ والخالةُ يتصرفونَ مع أبناءِ وبناتِ إخوتهم بمنطقِ المُسيطرِ المُستفردِ بالقـرارِ الذي يعرفُ كلَّ شـيءٍ وهـمْ لا يعرفون أيَّ شـيء! بالطبعِ هناك دائماً استثناءاتٌ، ولكني أتحدَّثُ عن الصورةِ العامةِ للعقليةِ الفرعونيَّةِ التي تسيطرُ على مَن يصلُ إلى موقع سُلطةٍ جزئيٍّ كالمدير والمعلِّمِ، أو مُطْلَقٍ كالأبِ، ولكنَّنا لم نرَ هذه السـلوكيات معَ النبيِّ إبراهيـمَ الذي قامَ دونَ خوفٍ بتحطيمِ الأصنامِ، ودخلَ دونَ خوفٍ داخلَ النارِ، لعلَّ قوَّةَ إيمانِ سيِّدِنا إبراهيمَ وصَبْرَه على المظالمِ كانا سـبباً لئلَّا تَحْرِقَهُ النارُ، وأنْ يكافِئَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالذُّرِّيَّة الصالحةِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبيـاء: 72]، وكانت هذه البُشْـرَى لزوجِهِ كذلك ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71].

وكانَ سـيدُنا إبراهيـمُ دائمَ الشـكرِ لله علـى نِعْمَتِه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

[إبراهيم: 39]، كما أنَّ هناك آباءً يحمدونَ اللهَ على نعمةِ الذريَّةِ، هناكَ من الآباءِ مَنْ هم دائمو الشكوى والتذمُّرِ من أبنائهم، ولا يَرونَ فيهم إلا ذلك العبءَ الثقيلَ الذي يُثقِلُ كاهِلَهم ويرهقَهم! بالإضافةِ إلى الحمْدِ، فإنَّ سيدَنا إبراهيمَ كانَ حريصًا على صلاحِ ذريَّتِه، وكانَ يُوصِيهم بحُسْنِ الإسلامِ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]، أَوصاهم بالتَّمَسُّكِ بدينِهم، ولم يوصِهم بالتمسكِ بالعَقار، أو البيتِ، أو حسابِ البنكِ! فكانَ من المنطقيِّ أن يُلقَّب النبيُّ إبراهيمُ بأبي الأنبياءِ، وكانَ من البديهيِّ أنْ يكونَ أصلَ اسمه (أبٌ رحيمٌ).

الأبُ يعقوبُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

وهنا نرى ثمرةَ تربيةِ أبي الأنبياء في واحدٍ من أبنائه، فقد تميَّز النبيُّ يعقوبُ بفطنةِ الأبِ المحبِّ العطوفِ، والذي كانَ على علم بطباعِ أبنائِه، وكان مُدركًا لحقيقة أنهم كانوا يغارونَ منْ يوسفَ وأخيه ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8]. هؤلاء الأبناءُ لم يعلموا أنَّ والدَهم كانَ يعاملُ كلَّ ابنٍ له حسبَ ما يحتاجُه في ذلك السنِّ والظَّرْفِ، كما أجابتْ سيدةٌ عندما سألوها: مَنْ أَحَبُّ أَبْنَائِها إِلَيْهَا؟ قالَتْ:

الصغيرُ حتى يَكْبُرَ، والمريضُ حتى يُشفَى، والبَعِيدُ حتى يَرْجِعَ. ولأنَّ يعقوبَ كان على درايةٍ بتفكيرِ أبنائه، طلبَ من يوسفَ ألا يُخبرَهم عن الرؤيةِ التي رآها في المنامِ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: 5].

والجميلُ أنهُ لمْ يَنْسِبْ كَيدَهم لكُرْهٍ أو حِقْدٍ في قلوبهم تجاهَ يوسفَ، بل نسَبَه ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: 5]. هذه صفةٌ جميلةٌ جداً يجبُ أنْ يتحلَّى بها كلُّ الآباءِ، وهي عدمُ تأليبِ أبنائهم على بعضِهم البعضِ، يعقوبُ كان يعلمُ أنَّ أبناءَهُ يَحقِدُون على يوسفَ، ولكنَّه لم يخبرْ يوسفَ بالأمرِ حتى لا يزرعَ الحقدَ في نفسه تجاه إخوتِه، وتركَ المجالَ مفتوحًا لتآلُفِ قلوبِ الإخوةِ جميعًا يومًا ما. هذا هو الأبُ المثاليُّ الذي يسعى لإخماد نارِ الفتنةِ بدلاً مِن تأجيجها، وهذا هو الأبُ الذي نستطيعُ أنْ نراهُ سنداً ومعينًا ومعيلاً بعْدَ اللهِ تعالى.

يعقوبُ كذلك كانَ على علمٍ أنَّ الذئبَ لم يأكلْ يوسفَ، وأنَّ إخوتَه قد دبَّرُوا له أمراً ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 18]. وهي نفسُ العبارةِ التي ردَّدَها عندما أخبرَه أبناؤُه أنَّ ابنه الثانيَ سرقَ وتمَّ حجزُه في مصرَ ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

[يوسف: 83]. بالرغم مِن أنَّ أبناءَ يعقوبَ بَرِيئُون بخصوصِ الابنِ الثاني، إلَّا أنَّ والدَهم ظنَّ أنَّ ما حصلَ كان مِنْ مكائدهم؛ لأنَّه تعوَّدَ على طِباعهم، ومعَ هذا لم يَلُمْهم، بلْ سَلَّم الأمرَ كلَّه لله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 86]. ولأنه سلَّم الأمر لله، فقد طلب من أبنائه أن يؤتوه مَوْثقًا من الله أن يرجعوا بأخيهم ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [يوسف: 66]، وكتم حزنه في نفسه، وظلَّ يعتصِرُه هذا الحُزنُ حتى فقَدَ بصرَه ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: 84].

ومعَ كلِّ ما فعلَهُ أبناؤه، ظلَّ يعقوبُ يحيطهم بالحبِّ والرعايةِ والاهتمام ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67]. كانَ حريصًا أن يترُكَ لهم أملاً في التوبةِ والرجوعِ إلى جادَّة الصواب، هذا هو الأبُ الذي يريدُ الخيرَ والصلاحَ لأبنائه مهما تشتَّتَ أمرُهم، وضلوا عن الطَّريق، فهو لا يتركُ لليأسِ مكانًا، ودائمًا يعطي لأبنائه الأملَ بالفلاحِ والانصلاحِ، ولكننا نرى بعضَ الآباءِ اليومَ لا

يصبرونَ على أبنائهم المراهقين، أو الذين لم يفلحوا في حياتهم، وانتهجوا نهجًا خاطئًا لا يُرْجَى مستقبلٌ منْ ورائه.

نرى هؤلاءِ الآباءَ يتكلمونَ عنْ أبنائهم بكلِّ سوءٍ أمامَ الناس، ويشتكونَ منهم، فما يكونُ من الأبناءِ إلا أنْ يتمادوا في تصرُّفاتهم، وهذا ردُّ فِعلٍ طبيعيٌّ لشخصٍ أدركَ أنَّه فقَدَ الأملَ في انصلاح حالِه، وفي تغييرِ نَظْرَةِ والدِه له.

النبيُّ يعقوبُ أدركَ أنَّ بذرةَ الخيرِ موجودةٌ في أبنائه، ولذلك حرصَ على الحفاظِ عليها، وتحفيزِها لكي تنمو وتُزْهِر في قلوبهم وبصائرهم، ولم يقتلْها كما يفعلُ الكثيرُ من الآباء اليوم الذين يدمِّرون نفسيَّات أبنائهم بعباراتٍ مثل (لا فائدةَ منك!)، (أنتَ عديمُ النفعِ)، و(أنتْ لا شيءَ).

ولذلك عندما ذهبَ أبناءُ يعقوبَ ليسترجعوا أخاهم من عزيزِ مصْرَ، طلبَ منهم أنْ يدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ؛ خوفًا عليهم أن تصيبَهم عينُ حاسدٍ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67]. ثم نراهُ يطلبُ منهم أن يبحثوا عن يوسفَ وأخيه، وكأنَّه يعطيهم الأملَ بأنَّ بابَ التوبةِ يبقى مفتوحًا دائمًا، ولا يُغلَق ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن

يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: 87]، ونجدُه لا يتردَّد في أنْ يستغفِرَ لهم اللهَ عندما تابوا وندموا على فِعْلَتِهم ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يوسف: 98]. النبيُّ يعقوبُ لا يعرفُ لليأسِ طريقًا، وحُسن ظَنِّه باللهِ مع صَبْرِه وإيمانِه واحتسابِه كلُّ هذا عجَّلَ بفرجِ اللهِ عليه وعلى أبنائه. ليسَ من السهلِ أنْ نصبرَ مثلَه، ولكنْ بإمكاننا أنْ نحاولَ ما استطعنا إذا أردنا النجاةَ لأنفسنا ولأولادنا.

سيِّدُنا يعقوبُ يحبُّ كلَّ أولاده بشكلٍ واحدٍ، ولكنِ اختلفتْ معاملتُه لهم؛ لِمَا اقتَضَتْهُ ظروفُ هؤلاء الأبناءِ وأحوالُهم، فالعدلُ بين الأبناء أمرٌ مهمٌ جداً، أهملَه بعضُ الآباء، فنحنُ نرى بعضَ أوجهِ المحاباة بينَ الأبناء، ونلاحظُ فارقَ المعاملةِ بين الذكورِ والإناثِ، أو بينَ الابنِ الأكبرِ أو الأصغرِ وبقيَّةِ إخوتِه، وهنا يجبُ أنْ يتنبهَ الآباءُ لما يفعلونه، فهم يرتكبونَ خطأً جسيمًا؛ ظنًا منهم أنهم يفعلونَ الصوابَ، فقدْ جاءَ في «صحيح مسلم» أنَّ الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «فَاتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»[1] (صحيح البخاري)، ذلكَ لأنَّ الفرقَ في المعاملةِ قدْ يؤدِّي إلى

(1) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة (3/ 158)، رقم (2587).

عواقبَ وخيمةٍ كالعقوقِ، وكُرْهِ الإخوةِ لبعضهم، فعلى الآباءِ أنْ يعلموا جيِّداً أنَّ أبناءَهم ينتبهونَ لهذه الأمورِ، ويتذكرونَها، فيجبُ ألَّا يعطوهم ذكرياتٍ أليمةً عن طفولتهم، والعدلُ يكونُ في كلِّ شيءٍ: في المادياتِ والمعنوياتِ والمحبَّةِ، فعليكَ أيُّها الأبُ أنْ تعدلَ بينَ أبنائِكَ؛ لأنَّهم أمانةٌ، وستُحاسَب عليها يومَ الحسابِ.

وعلى نَهجِ أبيه سيدنا إبراهيمَ، فقدْ حرِصَ النبيُّ يعقوبُ أنْ تكونَ وصيتُه لأبنائه أنْ يعبدوا اللهَ الواحدَ الأحدَ، وألا يشركوا به شيئًا، ولم يوصِهم بالمالِ أو الممتلكاتِ والمدخراتِ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]. سيدُنا إبراهيمُ وابنُه يعقوبُ كانا حريصينِ على أنْ تكونَ ذريتُهما غنيةً بالإيمانِ، وليسَ بالمالِ، في حين نجدُ أنَّ بعضَ الآباءِ اليومَ لا يهتمونَ لتربيةِ أبنائهم ولا لتديُّنِهم، وكلُّ همِّهم أن يكدِّسوا الأموالَ في البنوكِ ليأتي بعدها الأبناءُ، ويتصارعوا على هذه التَّركةِ، ولا عجبَ؛ فهذا ما يحصلُ عندما تُنزع البركةُ من البيوتِ.

نَسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ.



الأبُ نوحٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

سيدُنا نوحٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كانَ مِنْ أَصْبَرِ الأنبياءِ، فقدْ ظلَّ يدعو قومَه للإيمانِ باللهِ قرابةَ أَلْفِ سنةٍ، ولم يتوقف عنِ الدعوةِ إلا عندما أمرهُ اللهُ بذلك، وعندما جاءَ وعدُ اللهِ وبدأ الطوفان، طلبَ منَ ابنِه الكافرِ أن يصعدَ معهم إلى السَّفينة، ولكنَّ ابنَه رفضَ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: 42]، لم يقلْ: (وقالَ نوحٌ لابنِه) بل قالَ ﴿وَنَادَىٰ﴾، ونشعرُ هنا أنَّ المسافةَ بينهما لم تكنْ قريبةً، ومعَ ذلك لم يتخلَّ نوحٌ عنِ ابنِه، وطلبَ منه الانضمامَ إليهم.

يا لهذا الأبِ العظيمِ! فحتى في خضمِّ المحنةِ والعالمُ ينتهي مِن حولِه، كانَ يُهِمُّه أمرُ ابنِه، وكانَ حريصًا على سلامته، كانَ ابنُ نوحٍ كافراً، ولم يكنْ مجردَ مراهقٍ مستهترٍ تأخَّرَ في العودةِ إلى البيتِ في ليلةٍ من الليالي، أو سرقَ من والدتِه مبلغًا من المالِ، أو بقِيَ دون عملٍ لفترةٍ من الزمَنِ، ولم ينفكَّ سيدُنا نوحٌ ينادي ابنَه، وكأنَّ لسانَ حالِه مثلَ حالِ يعقوبٍ الذي كانَ حريصًا أشدَّ الحرصِ على أن يُذكِّر أبناءَه أنَّ بابَ التوبةِ مفتوحٌ دائمًا للتوبةِ والعودةِ إلى اللهِ، لم يقلْ أحدٌ منَ النبيِّين أنْ لا فائدةَ مرجوةٌ من أبنائهم، ولم يُلمِّحا لهذا الأمرِ حتى مجردَ التلميحِ،

بـل كانا طوالَ الوقـتِ بجانب أبنائهم، وقدَّمَا لهـم كلَّ ما يمكنُ تقديمُه من سندٍ ودعاءٍ.

أرجـو أنْ يكـونَ هنـاك آباءٌ يقـرأون هـذه السـطور؛ ليُراجع كلٌّ منهـم نفسـه، عندها لـن أُصدر أحكامـًا عليهم بـلْ هم مَن سـيحكمون على أنفسـهم؛ لأنَّهـم الأدرى بها دون غيرهم من الخَلْقِ.

وحتـى عندما انتهـى الطوفانُ لـم ينسَ نوحٌ ابنـه، وناجى اللهُ أنْ ينقـذَه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هـود: 45]، الأبُ الذي لا يَنسـى ابنَه مهما كانتِ الظروفُ، ويدعو له في كلِّ صلاةٍ، وفي كلِّ سـجدةٍ، سـيدُنا نـوحٌ كانَ يعلمُ أنَّ ابنَـه لنْ ينجُوَ، ومعَ ذلك نـادى ربَّه مِن أجلِه، ولـم يتوقَّف حتى جـاءَهُ ردُّ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: 46].

فبينمـا يصيبُ اليـأسُ بعضَ الآبـاءِ بصلاحِ أبنائهـم، نرى أنَّ الأنبيـاءَ لـم ينفكُّوا عن الدعـاء لأبنائهم حتى آخـرِ لحظةٍ. ابنُك المُسْـلِمُ ليسَ عدوَّك وإنْ حادَ عن الـدربِ لفترةٍ منَ الزمنِ، وإنْ لـمْ يدرسِ التخصصَ الـذي تريدُه أنْ يَدْرُسَـهُ، أو العروسَ التي

تُريـدُه أن يتزوَّجَها! بـل وإنْ تمرَّدَ على قوانيـنِ العائلةِ وأعرافِ المجتمعِ، افتحْ قلبَكَ وذراعَيْك لِابنِك دائمـًا؛ لأنه حتمـًا سيعودُ بـإذن الله، وتذكَّـرْ أنَّـه رغمَ كلِّ شـيءٍ ابنُـك ليس كافـراً، وليسَ خصمـًا لك، فلا تُعادِه.

بالإضافةِ إلى الأنبياء، فإنَّ القرآنَ الكريمَ سرَدَ لنا قصصـًا عن بعـضِ الصالحينَ، وعلاقتِهم بأبنائهم وبناتِهم، وسـنتحدثُ عن هذه التفاصيل في السطورِ القادمةِ.

الأبُ لقمانُ

الجميلُ في علاقةِ لقمانَ بابنِهِ أنَّه يخاطبُه بقوله (يا بُنَيَّ) عندما يُسدي له النصائحَ.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13].

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 16].

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: 17].

لاحظوا أسـلوبَ لقمان في النصيحةِ، وكيـف تعاملَ مع ابنه،

لقمانَ أرادَ أن يستميلَ ابنه له، ويكسبَ محبتَه وثقتَه حتى يتمكنَ من احتوائِه، ويجعلَه يسمعُ النصيحةَ برضًا وقَبولٍ، ويَعمَلُ بها، كونَه الأبَ لم يجعلْه يتسلطُ على ابنِه بفرضِ الرأيِ وإجبارِه عليه، بل خاطبَ ابنَه كصديقٍ، واقتربَ منه بالكلمةِ الطيبةِ واللِّينِ والمودةِ؛ ليفوزَ بمحبتِه وصداقتِه إلى الأبد.

كيفَ يخاطبُ بعضُ الآباء أبناءَهم عند نصحهم؟ هذا إذا اعتبرنا أنَّ ما يقولونَه هو نصيحةٌ فعلاً، وليسَ أمراً وجَبَ تنفيذُه من باب الاستبدادِ و التفرُّدِ بالحُكم، وكأنَّهما عدوَّانِ!

كما أنَّ مِن واجبِ الابنِ برَّ أبيه، فمِن واجبِ الأبِ أنْ يساعدَ ابنَه على هذا البِرِّ؛ أوردَ الإمامُ السيوطيُّ في كتابِه «الجامعِ الصغيرِ» نصَّ الحديثِ: «رَحِمَ اللهُ وَالِدَاً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ»[1]. يُقال: إنَّ سندَ هذا الحديثِ ضعيفٌ، ولكنْ لِنُفكِّر فيما يدعو لهُ مِنْ معنىً طيبٍ كدعاءٍ مطلوبٍ، وفيه الرحمةُ والتيسيرُ للأبناء الذينَ هم بحاجةٍ لمن يعينُهم على البِرِّ.

يجبُ على الأب أنْ يُدرِك أن ابنَه شخصٌ مستقلٌّ عنه، أي لهُ كيانُه الخاصُّ، ومِن حقِّه أن يُعَامَل على هذا الأساسِ.

(1) السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (6863)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (3118).

أيُّهـا الأبُ القاسـي، جَـرِّبْ أن تتقـرَّبَ مـنَ ابنِـك، وخاصةً المراهقَ الذي بحاجةٍ إلى مَن يحتويه، وسترى كيفَ أنَّه سيقتربُ إليك أكثرَ؛ لأنه بحاجةٍ إليك، لكنَّ أسـلوبَك المنفِّرَ قد يكونُ هو السـببَ في فتورِ العَلاقةِ بينكما، فراجعْ نفسَك، وتذكَّرْ أنَّك كنتَ مراهقـاً في يومٍ من الأيـامِ، وربَّما ارتكبتَ أخطاءً أكثرَ فظاعةً من أخطاءِ ابنِك، فهوِّن على نفسِك، وهوِّنْ على ابنِك.

أبُ بناتِ مَدْيَن

عندما فرَّ سيدُنا موسى من فرعون، ذهبَ إلى مدْيَن في الأردنِ، ولك أنْ تتخيلَ مشـقَّةَ السفرِ هربـًا من القتْلِ، وسيراً على الأقدامِ مـنْ مِصْرَ إلى الأردنِ، وهنـاك وجدَ امرأتيْنِ تـذودانِ عند البئرِ، وتعذَّر عليهما السِّـقايةُ بسببِ ازدحامِ النَّاس، فما كانَ منه إلا أنْ ساعدَهما، ومضى في حال سـبيلِه، ولكنَّ إحدى الفتاتيْن عادتْ إليه لتخبرَه أنَّ أباها يريدُ أنْ يشكرَهُ على مساعدتِه.

لنتوقـفْ لحظـةً هنا، كيـفَ علـمَ الأبُ بالأمرِ؟ بناتُـه أخبرْنَه طبعـًا، فبناتُه لم يُخفين الأمرَ عنه، وكانَ بإمكانهنَّ ذلك، ونلاحظُ أمراً مشـابهـًا عندما اقترحـتْ إحداهما على والدها أنْ يسـتأجرَ سـيدنا موسـى ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: 26]. لو قالَتْ هذا الكلامَ فتاةٌ في عصرنا

الحالي لوالدها أو حتى لأخيها، ماذا سيكونُ مصيرُها؟

البنـاتُ يتحدثْن مـع والدهنَّ بكل صراحةٍ، وبطريقةٍ مباشـرةٍ دونَ تلميحٍ ودونَ وساطةٍ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ عندما تكونُ العلاقةُ بيـنَ الأبِ وبناتِـه مبنيَّةً علـى الرحمةِ والمحبَّةِ والثقـةِ المتبادلةِ، فالوالدُ منحَ بناتِه الثقةَ، وقامَ بإرسـالهنَّ لإحضارِ الماءِ، والبناتُ في المقابل حافَظْنَ على هذهِ الثقةِ، وكُنَّ أهلاً لها.

الثقـةُ التـي يمنحُهـا الأبُ لبناتِـه تجعلُهـنَّ يتفادَيْنَ أسـاليبَ كالكَـذِب والمراوغةِ وإخفاءِ الأسـرارِ (بن حميدة وأبوغرسـة، 2017م)، وبهـذا يجعلُ الأبُ مـن بناته نموذجًا للفتـاةِ العفيفةِ التَّقيَّـة النَّقيَّـةِ الصريحـةِ التـي تحملُ علـى عاتقها تربيـةَ أجيالِ المستقبلِ.

أمَّـا إذا عاملَ الأبُ بناتِه معاملةً كلها شـكٌّ و ظنٌّ سـيِّءٌ، فقدْ يضْطَـرُّ بناتِـه للجوءِ إلـى الأسـاليبِ الملتويةِ حتى يتفنَّـنَّ فيها، وتصبحُ مع الوقتِ ديدنَهُنَّ وطبعـًا فيهن.

لم تضطرَّ ابنةُ الرجلِ الصالحِ إلى الكذِبِ؛ لأنها ببساطةٍ تعلمُ أنَّ والدَهـا يثِقُ بها، وتعلَـمُ أنَّه لنْ يظنَّ بها سـوءاً، ولذلك عندما أعجبَتْها شـهامةُ النبيِّ موسـى، لم تواعدْه سِرًّاً، ولم تخفِ الأمر عـن والدها، بل صارحتْ أباها بذلك، وهو بدوره فهِمَ مقصدَها

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ [القصص: 27]. هذا الأبُ الصالحُ فهِمَ مشاعرَ ابنتِه، ومع ذلكَ لم يحدِّدْها هي بالتحديدِ، بل قال ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ﴾، وذلك حفاظًا على مشاعرِ ابنتِه، حتى لا يُسَبِّبَ لها الإحراجَ.

الأبُ الصَّالحُ يعلم أنَّ الحبَّ ليسَ حرامًا ولا عيبًا، فالسيدةُ خديجةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أحبَّتِ الرسولَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واختارتْه زوجًا لها.

الحبُّ ليس خطأً، الخطأُ في اختيارِ طريقةٍ غيرِ صحيحةٍ للتعبيرِ عنه، ابنةُ الرجلِ الصالحِ عندما تحرَّكَتْ مشاعرُها، وأحبَّت، اتَّجَهَتْ إلى والدِها مباشرةً، ولم تقمْ بأي عملٍ من نفسِها، بل سلَّمَت الأمرَ له، هي تشعرُ بالأمانِ، وتعلمُ أنَّ والدها لن يعاقبَها؛ لأنها لم تفعلَ شيئًا خاطئًا، أو مَعيبًا، وهو بدورهِ ساعدَها لتنالَ مرادَها، وانتهى الأمرُ بكلِّ سلامٍ، ونتجَ عنه رِضا كلِّ الأطرافِ.

لا أتوقعُ أنْ تتكررَ، مثلُ هذهِ القصةِ في عصرنا الحالي، وذلك لأنَّ مجتمعاتِنا تتعاملُ مع الحبِّ على أنّه أمرٌ معيبٌ مشينٌ، وأنَّ الفتاةَ التي تحبُّ تجلبُ الفضيحةَ لأهلها وعائلتِها، ولكنَّ هذا لم يمنعِ الفتياتِ أنْ يقعْنَ في شباكِ الحُبِّ، فما كانَ منهنَّ إلا أنْ يلجأنَ إلى الحِيَلِ والدسائسِ و المؤامراتِ والتعاونِ مع

صديقاتِهن للتغطيَةِ على الأمرِ، وبطبيعةِ الحال تعززُ المسلسلاتُ هذه الأمورَ بعرضِ أساليبَ مختلفةٍ لهذه الدسائسِ، وبالنتيجةِ تتعلمُ البناتُ خططًا جديدةً للكذب على أهاليهن لا لشيءٍ، إلا لأنهنَّ يعشْنَ في مجتمعاتٍ تَعْتَبِرُ مشاعرَ الحبِّ والزنا أمراً واحداً! وأنَّ الفتاةَ التي تقعُ في الحبِّ يُنظر إليها في حُكْمِ الفاجرةِ الزانيةِ -والعياذُ بالله-.

وهنا أودُّ أنْ أُنوِّهَ أنَّ كلَّ مَن يَتَلَفَّظُ بالسوءِ على فتاة تُحِبُّ، فهو بذلك يشملُ السيدةَ خديجةَ بحُكمِه شاءَ أمْ أبَى، وبهذا فستكونُ السيدةُ خديجةُ مِن ضِمْنِ خصومِه يومَ القيامَةِ! تخيَّلْ أنْ يأتيَ الرسولُ الكريمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشفعَ لشخصٍ ما، فيجِدُ زوجَه السيدةَ خديجةَ مِن ضمن خصماءِ هذا الشخصِ! المسكينُ! كمْ أُشْفِقُ عليه!

إنَّ البناتِ بحاجةٍ إلى جرعاتٍ مضاعفَةٍ من العاطفَةِ، ويجبُ على الأبِ أنْ يبذلَ الحبَّ، ويمنحَه لبناته في جميعِ مراحلِ عمرِهن، وألَّا يقتصرَ الأمرُ على الطفولةِ فقط؛ لأنَّ البنتَ كلما أعطاها الأبُ حبًا كلَّما ازدادتْ زهواً وابتهاجًا وحبًّا له، وبالتالي صونًا لنفسها، ولسُمْعَتِها، وسمعةِ عائلتها.

أما الابنةُ التي تعيشُ في بيئة جافةٍ باردةٍ خاليةٍ من الحبِّ

والحنـانِ، ومليئـةٍ بالمعاملةِ القاسـيةِ المجحفَةِ، وسـطَ أهلٍ لا يترأَّفـون بها، ويردِّدون على مسـامعها أنَّها عالةٌ عليهم، وأنَّهم لا يثقونَ بها، فلا تستبعدوا أن تلجأَ هذه الفتاةُ إلى تكوينِ صداقاتٍ عابرةً ومتكررةً مع الشباب، كرَدِّ فعلٍ انتقاميٍّ على طريقةِ تعاطي أهلهـا معهـا، وهذا تصـرُّف واردٌ جـداً، فهي تعيشُ مـع أهلٍ لا يثقونَ بها، فبطبيعةِ الحالِ هي لنْ تحافظَ على ثقةٍ غيرِ موجودةٍ.

باختصارٍ: أغدِق الحُبَّ الحقيقيَّ على ابنتِك حتى لا تضطرَّها أنْ تبحثَ عن حبٍّ زائفٍ خارجَ البيتِ.

وَالدُ الغُلاميْنِ صاحِبِ الكَنْزِ

وَنَخْتِـمُ الحديثَ بقصةِ الأبِ الصالحِ والدِ الغلامينِ اليتيمينِ التي وردتْ في سـورةِ الكهفِ. لا نَعْلَمُ الكثيرَ عنه، ولكنْ ما وَردَ في السـورةِ يعكـسُ واحداً من أهـمِّ واجباتِ الأبِ تجـاهَ أبنائه، وهـو توفيـرُ حياةٍ كريمـةٍ لهم، هناك بعـض الآباءِ يُـردِّدون الآيةَ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: 82]، ويستخدِمُونها كحُجَّةٍ لهم على أساسِ أنهم آباءٌ صالحونَ، قد يكون هؤلاء الآباءُ صالحينَ فعلاً، ولكـن لنقرأ الجزءَ الأولَ من الآيـة ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ [الكهف: 82]، هـذا الأبُ الصالحُ تركَ كنزاً لأبنائه قبْـلَ أن يموتَ، ونحنُ نعلَمُ كمْ مِن الوقتِ والجهدِ يحتاجُ الشخصُ ليجمعَ المالَ، ومِن

هنا نعلَمُ سببَ وَصْفِ هذا الأبِ بالصالحِ، وشتَّانَ بينه وبين مَن يقول «سَأَجْمَعُ المالَ لنفسي، ولنْ أتْرُكَ لأولادي شيئًا»! والآن أيُّها الأبُ الذي يقرأُ هذه السطورَ، هل ترى بينكَ وبين نفسك أنَّك أبٌ صالحٌ؟ ماذا تركت لأبنائك؟ وأُخَصِّص هذا السؤالَ للآباء المقتدرينَ ماديّا بالتحديد: إذا كنتَ ترى أنك أبًا صالحًا، فعلى أيِّ أساسٍ أصدرْتَ هذا الحكمَ عن نفسك؟ وكما ذكرتُ أعلاه، أنا لنْ أحكمَ على أحد، فكلُّ شخصٍ أدرى بنفسه.

قد يقولُ أحدُهم: إنَّ هذه الصفاتِ مقتصرةٌ على الأنبياء، ولكن القرآنَ يحدِّثُنا عن الأسباب وراءَ هذه المِنَحِ الربانيةِ لهم، فقدْ قالَ تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90]. وهذه هي الوصفة، مَن أراد أن يرزقه الله بالحياة الكريمة والذرية الصالحة المباركة عليه أن يكثر من عمل الخير، وذكر الله، والخشوع، فسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يجود بالخيرات، وكان مِن أكرم الناس وأجودهم، فقد كان يذبح العجول لاستقبال الضيوف:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: 69].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ

قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ [الذاريات: 24 - 26].

وسيدنا زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان كثيرَ الدعاءِ، ودائمَ التواجدِ في المحرابِ للتَّعبُّد، ونعلمُ هذا لأنَّه كانَ يصلِّي في المحراب عندما جاءتْه الملائكةُ لِتُبَشِّرَهُ بيحيى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 39]. مصدقاً وسيِّداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، كلُّ هذه الصفاتِ وضعَها اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في يحيَى؛ مكافأةً لسيدنا زكريا على التعبُّد والذِّكر والدُّعاء.

الرحمةُ أيها الأبُ، الرحمةُ مطلوبةٌ، وهي صفةٌ ربانيّة رئيسةٌ وجوهريةٌ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: 58]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: 133]، يجبُ على الأبِ التحلي بالرحمةِ والصبرِ على أبنائه، وخاصةً في مرحلة المراهقةِ؛ حيثُ الشعورُ بالانطلاق، وعنفوانِ الشبابِ، يجبُ على الأبِ أنْ يعلمَ أنَّ أبناءَه بحاجةٍ إليه دائماً، ليسَ فقط منْ أجلِ أن يُنفق عليهم، ولكنْ هم بحاجةٍ إلى اهتمامه ورعايتِه ومحبتِه.

إِخوةُ يوسفَ أرادوا التخلُّص منه، ليسَ من أجلِ ميراثٍ أو مالٍ، إنَّما أرادوا أن يحوزوا على اهتمام أبيهم فقط ﴿ٱقْتُلُواْ

يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: 9].

هم يُدْرِكون أنَّ مكيدتَهم ليستْ صالحةً، ولكنهم يريدونَ الصلاحَ، ولا ننسى أنَّ الإخوةَ طلبوا من العزيزِ يوسفَ أنْ يسجنَ أحدَهم بدل أخيهم الصغيرِ الذي سرَقَ، وذلك خوفًا على أبيهم مِنْ صدمةٍ أخرى ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 78]. وهذا دليلٌ أنَّ الأصلَ في هؤلاء الأبناءِ هو الخيرُ والمحبةُ، ولكن الشيطانَ نزغَ بينهم، وهم معترفونَ بذنبهم مع يوسفَ، ولا يريدون تكرارَهُ وهذا ما نراه في موقف الأخِ الأكبر عندما تمَّ اتهامُ أخيهِ بسرقةِ صواعِ الملك ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: 80].

هناك مغالطةٌ يقعُ فيها الكثير من أولياءِ الأمور، وهي أنَّهم يرفضونَ أيَّ خطأٍ من أبنائهم مهما كانَ صغيراً، ولا يعطون أبناءَهم المساحة الكافيةَ لكي يعيشوا كبشرٍ عاديينَ طبيعيينَ يخطئون ويصيبونَ، بل يريدُ هؤلاء الآباءُ أن يتصرفَ أبناؤهم بكمالٍ مُطلقٍ دون أن يرتكبوا أيَّ خطأ، هم يطلبونَ المستحيلَ

فالأبناءُ ليسوا معصومين، ولا منزَّهين؛ لذلك دعوا أبناءكم يُخْطِئُونَ ويتعلمون مِن أخطائهم؛ حتى يُدركوا أنَّ الخطأَ ليس عيباً، بلِ العيبُ هو تكرارُ نفسِ الخطأِ.

عاملوا أبناءَكم بعطفٍ وحبٍّ حتى لا ينفضوا من حولكم، فقد قالَ تعالى مخاطباً الرسولَ الكريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]. غلظةُ القلبِ تؤدي إلى النُّفورِ والهجرانِ، أو البقاءِ بالإكراهِ، وكلا الحالتيْنِ كارثةٌ في علاقة الأبِ بأبنائِه.

على الآباء وكلِّ مَن هم في مركزِ سُلطةٍ وقيادةٍ أن يدركوا أنَّ الأخلاقَ العاليةَ هي أهمُّ صفاتِ القائدِ الناجِحِ، وأنَّ الرأفةَ والرفقةَ ليسا دليلَ ضَعْفٍ، بل هما دليلُ قوَّةٍ وحِلم.

الأمرُ منوطٌ بك أيُّها الأب، فلتفعل الخيرَ، ولتذكر اللهَ إنْ أردْتَ الذريةَ الصالحةَ، وعوّد نفسكَ على مراجعةِ تصرفاتِك وعباداتِك كلما ألمّ بك أمرٌ يُضنيك ويقضُّ مضجعَكَ، فلستَ دائماً محسوداً: أحياناً يكون سببُ المشكلةِ هو تقصيرٌ من جانبك، وتذكَّرْ أيها الأبَ أنك لا تزال إنساناً معرَّضاً للوقوع في الأخطاءِ، حالُك حالُ باقي البشر، فلا تتصرَّفْ وكأنك صِرْتَ تعلمُ كلَّ شيءٍ في هذه الحياةِ لمجردِ أنك صرتَ أباً، طالما

أنَّك لا تزال حياً، فستبقى دائماً طالباً في مدرسة الحياةِ، تتعلمُ كلَّ يومٍ درساً جديداً، بل قدْ يشاءُ اللهُ أن يجعلَك تتعلمُ بعضَ الدروسِ على يدِ أبنائك كما حصلَ معَ سيدِنا إبراهيمَ الذي أرادَ أنْ يُعلِّم والده الدِّينَ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: 42]. فكُنْ دائماً مستعداً أيُّها الأبُ لهذا الأمرِ، ومتقبلاً له، ولا تكنْ مثلَ وَالِدِ النبيِّ إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

أيُّها الأب: أبناؤُكَ أمانةٌ ستُحاسَبُ عليها يومَ الحساب، هم ليسوا مِلكيَّةً خاصةً بك لتتحكمَ فيهم، وتلغي شخصياتِهم، وتفرضُ عليهم قناعاتِك.

وظيفتُك هي التربيةُ قبلَ التغذيةِ؛ لأن الجمعياتِ الخيريةَ لها القدرةُ على إطعامِهم وكسوتِهم مثلك، بل أفضلُ منك في بعضِ الأحيان. أنتَ مسئولٌ عن حُسن تربيتِهم، وحُسنِ معاملتهم، وسوفَ يحاسبُك اللهُ عليهم.

إذا كنتَ غيرَ قادرٍ على تحمُّل هذه المسئوليةِ، فأنتَ تزوجتَ ولم تعرِفْ ما يجبُ عليك من مسئوليةٍ وأمانةٍ ستحاسبُ عليها؛ فارجعْ إلى الأمانة واحفْظَها.

وختاماً أُنهي الكلامَ بفقرة قرأتُها أثناء تصفُّحي لمواقع التواصل الاجتماعي، أضعُها هنا لأختمَ هذا الموضوعَ:

«تَرْبِيَـةُ الأولادِ هـي أنْ تربِّي نفسَـكَ معَهُم: تمنعُ نفسَـكَ من أمـورٍ تهواهـا، تتوقَّفُ عن عاداتٍ سـيئةٍ مخافـةَ أنْ تنتقلُ إليهم، تَتَّصِـفُ بأخلاقٍ حميدةٍ؛ لتكونَ قدوةً لهـم، تهدأُ وتتكلَّمُ بإقناعٍ، وتتعلـمُ الحـوارَ، تغيِّرُ طريقتَـكَ في الأكلِ واللِّبَـاسِ، وتُعدُّ لكلِّ سؤالٍ جوابًا. إذا لم تغيِّرْكَ تربيةُ أولادك فأَنت لم تُربِّ! ولا تربيةَ بغيـرِ دعاءٍ، فمَن لم يسـتعنْ بالله لنْ يبلغَ مُرادَه ولـو نَحَتَ جبالَ الأرضِ»، لقائلها.

المراجع

- ابـن حميدة، آمنة وأبو غرسـة، عـزة (2017م). مدخل علمـي في منهجية تربية الأبناء والبنات على ضوء نظرة تحليلية لقصة نبي الله موسـى و النبي شعيب وبناته عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ. أما رباك. المجلد 8، العدد 27. ص79–88.
- صحيح مسلم (1243/ 3).



هناك صلةٌ وطيدةٌ بين القلبِ والجوارحِ، ولكنَّهما أيضًا أمرانِ منفصلانِ، وإن كانَ فصلُهما أمراً يشكِّل تحديًا كبيراً عند الكثيرين؛ لِما يتطلَّبُه من خَلْقِ نوعٍ من التوازنِ بينهما. ولكنْ هنا يَكْمُن جوهرُ الموضوع، فعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»[1] (الألباني). فتدريبُ النفسِ على الاستقامةِ هو أمرٌ صعبٌ، ولكنَّهُ ليسَ مستحيلاً، وبالإرادةِ يمكن صُنْعُ كلَّ شيءٍ، فبينما يكونُ القلبُ مؤمنًا متوكلاً وعلى يقينٍ بقدومِ الفرجِ وإن تأخَّر، فإنَّ الجوارحَ لا تتوكَّلُ وهي في ديمومةٌ نحو الأخذِ بالأسبابِ، والسعي المتواصلِ والعمَلِ.

ومنْ أمثلةِ الأخذِ بالأسبابِ في القرآنِ هو موقفُ سيدنا إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الأصنام، فقدْ دعا إبراهيمُ ربَّه أن يُجنِّبه وبَنيه أنْ يعبدوا الأصنام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: 35]. ولكنَّ سيدَنا إبراهيمَ لم يكتفِ

---

(1) رواه السيوطي في «الجامع الصغير»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (1/ 461)، رقم (2326).

بالدعاء، بل عقدَ العزمَ على تحطيمِ هذه الأصنامِ ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57]. وقـامَ بتحطيمِ الأصنامِ بالفعل ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93]، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 58]. ولأنَّـهُ صـدقَ معَ اللهِ أنصفَهُ اللهُ، وأنقذَهُ مِن النارِ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]. بل كانتِ المكافأةُ أسخى من ذلك، فقد نجَّاه اللهُ هو والنَّبـيَّ لوطـًا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71]. وفوق هذا وهبَهُ الله الذرية الصالحة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 72]. قصـةٌ رائعـةٌ ومهمة تُعلِّمُنا أنْ نخطوَ خطوةً نحـو التغييرِ، وقلوبُنا مؤمنةٌ أنَّ الله لنْ يتركَنا، ولن يُضيِّعَنا، وهذا هو جوهرُ التوكُّلِ.

ولكنْ هلْ للأخذِ بالأسباب نهايةٌ؟ أمرنا ربُّ العالمين بالسعيِ والعمـل الدؤوبِ دون توقفٍ؛ لأنَّ أعمالنا هي كلُّ ما نملك ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: 39-41]. ولنـا في قصـة ذي القرنيْن عبرةٌ، فقـدْ كانَ الأخذُ بالأسـباب ديدنَـه ومنهجَه، ومـا كانَ ينتهي من مهمةٍ حتى يباشـرَ مهمـةً جديدةً ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85]، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89]، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهـف: 92]. تَعلَّـمْ من ذي القرنيْـنِ أنْ تبدأَ هدفـًا جديداً كلما أنهيتَ الهدفَ الذي بين يديْكَ، وتعلَّمْ أنْ تحاولَ حلَّ

المشكلات بأكثرَ من طريقةٍ دونَ كللٍ أو مللٍ؛ حتى لا يتمكَّنَ اليأسُ منك. يجبُ الأخذُ بالأسبابِ إلى أنْ يأتيَ فرجُ اللهِ مهما تأخَّرَ، ولا ننسى أجرَ الصبرِ العظيمِ. وهنا نتذكرُ أمَّ موسى والسيدةَ هاجَر، فهما مثالانِ على الأخذِ بالأسبابِ حتى آخرَ لحظةٍ، وعدم التوقُّف حتى نرى النتيجةَ، ولنبدأْ بأمِّ موسى.

أمُّ موسى كانتْ على عِلْمٍ أنَّ فرعونَ سيقتلُ ابنها الرضيعَ، فأوحى لها الله أنْ تُرضِعَه، ثم تُلقيَه في اليَمِّ، ووعدها أنَّه سيعيدُه إليها ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]. كانتْ هذه مكافأةَ اللهِ لأمِّ موسى على حُسْنِ توكُّلِها عليه، فاللهُ لم يكتفِ فقط بإعادة موسى إليها، بلْ وجعلَه نبيًّا، وهذا هو عطاءُ الله لمَنْ صبرَ وتوكَّل ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: 108]، ولكنَّ أمَّ موسى بعد أنْ ألقتْهُ في اليمِّ طلبتْ من أُختِه أن تلحقَ به خِلسةً، وترى أينَ يَستقِرُّ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 11].

لماذا طلبَتْ أمُّ موسى من ابنتِها أن تلحقَ بموسى؟ ألم يَعِدْها اللهُ أنَّهُ سيعيدُه إليها؟ هنا يظهرُ التوكُّل، فقَلْبُ أمِّ موسى على يقينٍ أنَّ اللهَ سيعيدُه إليها، ولكنْ كان يجبُ على جوارحِها أنْ تسعى وتتحرَّكَ، وتأخذَ بالأسباب، وكانتْ خطوةً ناجحةً، فعندما

لاحظتْ أختُ موسى أنَّه رفضَ المراضعَ كلَّها اقترحتْ على آل فرعونَ أنْ يأخذوه إلى والدتها التي أرضعَتْه؛ لأنَّه كانَ يتذكَّرُ تلكَ الرضعةَ، وكانتْ هذه مكافأةً من اللهِ لأمِّ موسى على توكُّلِها عليه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 13].

لأنَّ أمَّ موسى توكَّلت على اللهِ حقَّ التوكُّل، وأخذتْ بكلِّ الأسباب فقدْ سخَّرَ اللهُ لها جنودَه، فجعلَ الماءَ لا يُغْرِق الرضيعَ موسى، وجعلَ تيارَ الماءِ يأخذُه إلى آل فرعونَ، وجعلَ محبَّتَه تقعُ في قلبِ امرأةِ فرعونَ، وجعلَ فرعونَ على كل قَسْوتِه وجبروتِه يلينُ، ويَقبَلُ أنْ يُربِّيَ ولداً ليس مِن صُلبه، ثم جعَلَهم يُوافقونَ أنْ ترضعَه امرأةٌ من بني إسرائيل رغمَ استعباده لهم، عندما تَصدُقُ النِّيَّة معَ اللهِ وتسلِّم لهُ الأمرَ يسوقُ لكَ الخيرَ على يدِ عدوِّك بطرقٍ يتعجبُ لها أهلُ العجائبِ.

ومثالٌ مشابهٌ لحُسن الظنِّ بالله معَ الأخذ بالأسبابِ هي السيدةُ هاجرُ أمُّ النبيِّ إسماعيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقدْ جاءَ في «رياض الصالحين» أنَّ النبيَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وضعَ السيدةَ هاجرَ وابنَها الرضيع عندَ البيتِ في مكةَ حيثُ لا ناسٌ ولا ماءٌ؛ كما أمرَه اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ثم انصرفَ دونَ أن يكلِّمَهم، وسألتْهُ هاجرُ «يَا إِبْرَاهِيمَ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنِيسٌ وَلَا شَيْءٌ؟»، وكرَّرتْ

ذلـك مراراً دونَ أن يرُدَّ عليها، ثم سَـأَلَتْهُ: «آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟»، فهزَّ رأسه أيْ نَعَمْ، عندَها قالت «إذاً لا يُضَيِّعُنا»[1] (رياض الصالحين).

ودعـا لهم سـيدُنا إبراهيمُ وهـو يغـادِرُ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37]. وعندما عطِشَ إسـماعيلُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أرادت أمُّـه أن تَجِدَ له الماءَ، فصارتْ تركضُ بين جبلَيِ الصَّفا والمَرْوَةِ؛ لترى إنْ كانَ هناك أحدٌ يساعدُها، فلم ترَ أحداً، وظلَّت تركضُ بيـنَ الجبليْنِ دونَ توقُّف رغمَ عِلْمِها أنَّه لا يوجدُ أحـدٌ، ولكنها كانتْ تعلَـمُ أيضـًا أنه عليها الأخذُ بالأسـباب، لم يكنْ في نِيَّتِها أنْ تركضَ بين الجبليْنِ سبعَ مراتٍ بالتحديد، ولكنها توقَّفَـت عند المرةِ السـابعَةِ؛ لأنَّ الفرجَ جـاءَ، ولو لم يأتِ الفرجُ لأكملَتِ الركضَ، فقدْ ضربَ جبريلُ بجناحِه عند قدَمِ إسماعيلَ، فانْفَجَرَ نبعُ زَمْزَمَ بِئراً لا يَنْضَبُ، فشرِبَ إسماعيلُ وارتوى.

السـيدةُ هاجـرُ كانـت علـى يقيـنٍ أنَّ اللهَ لـن يُضيِّعَهـا هـي وإسـماعيلَ، ومعَ ذلك لمْ تجلـسْ وتنتظرِ الفـرَجَ، بلْ تحرَّكَت، وبحَثَـتْ عـن الماءِ، كمـا أنَّها لم تتوقـفْ عن السـعيِ بين الصَّفا والمروةِ حتى انفجرَ ماءُ زمزمَ.

---

(1) رياض الصالحين، للنووي، ص 521، رقم (1867).

يـا مَن تراسـلُ الشـركاتِ بحثـًا عن وظيفـةٍ ولا تجـدُ مكانـًا يقبَلُكَ، لا تستسـلِمْ، واستمرَّ حتى يأتيَ فرجُ اللهِ، فواللهِ كلَّما تأخَّرَ الفرجُ يأتي كبيراً، ويجعلُكَ عاجزاً عن الشُّـكرِ، ولكنْ لا تتوقَّف، وخُذْ بالأسبابِ، وحاولْ بعدَّةِ طُرُقٍ، وبإذن اللهِ يفتحُ اللهُ المغاليقَ، وتُزال الكُرَبُ.

ونـأتي بالحديـثِ إلى السـيدةِ مريـمَ التـي دعَتِ اللهَ عنـد ألَمِ المخـاضِ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: 23]، وعندمـا جاءهـا فـرجُ اللهُ أمرَهـا أنْ تهـزَّ النخلـةَ حتى يتسـاقطَ عليها الرُّطَب، وهـو القادرُ سبحانه على أنْ يجعلَ الرطبَ يتساقطُ دونَ أن تقومَ السيدةُ مريمُ بهـزِّ النخلةِ، وهـيَ في حالةِ وضْعٍ، والمعـروفُ أنَّها أضعفُ حالٍ تكونُ عليه المرأةُ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريـم: 25]. لا تَـوَاكُلَ في دِينِنـا، يجـبُ أنْ نأخُذَ بالأسـبابِ دائمـًا حتى معَ التزامِ الدعاءِ والأذكارِ.

اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يريـدُ منا أنْ نعملَ ونحنُ موقنون أنَّ الفرج آتٍ من عنده وحدَه دونَ حولٍ منَّا ولا قُوَّةٍ ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

وكذلك سيدنا أيُّوب أمرَه اللهُ أن يأخذَ بأسبابِ العلاجِ، سيدُنا

أيوبُ صبرَ على المرضِ عقوداً من الزمنِ، وكانَ كثيرَ الدعاءِ أن يشفيَه اللهُ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41]. وعندما استجاب الله لدعائه، أعطاه أمراً من أجْلِ العلاج ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42]. هيَّأَ الله له ماءً طيباً فيه الشفاء مِن مرضه الذي أكل جسده، ومع ذلك أمره أن يركض بِرِجْلِه إلى ذلك المغتسل البارد، ومن المعروف أن الرَّكض يكون بالأَرجل، فإذا قال لك أحدهم: «اركض» فالجميع يعلم أنك ستقوم بعملية الركض باستخدام رجليك دون الحاجة للإطناب في عبارة «اركض برجلك»، إذاً لماذا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النبي أيوب أن يركض برجله؟ لماذا قال له ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ولم يقل له «اركض» فقط؟ لأنه تأكيد أن يقوم النبي أيوب بهذه المهمة بنفسه، ولا يرسل أحداً غيره ليقوم بها نيابة عنه، كان على سيدنا أيوب أن يأخذ زِمام المبادرة بالحركة حتى يكتب الله له الشفاء.

إذا أردتْ لحياتِك أن تتغيرَ فعليكَ أنْ تتحرَّكَ، وتسعى، وتتذكرَ أنَّ مشوارَ الألفِ ميلٍ يبدأُ بخطوةٍ، وأنَّ اللهَ معك دائماً في كل خطوةٍ تخطوها، وكرَمَهُ كبيرٌ جداً مع عِبادِه.

فقدْ أمرَ اللهُ المسلمين أنْ يقاتلوا الكفارَ حتى لا تنتشرَ الفتنةُ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39]، بمعنى أنَّه إذا أرادَ المسلمونَ أنْ تنتهيَ الفتنةُ، وأنْ يكونَ الدِّينُ لله، فعليهم أنْ يبادروا بردعِ الفتنةِ عنْ طريقِ القتالِ، وعلى غرارِ هذه الآيةِ يقولُ اللهُ تعالى ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]. لاحظوا كمْ فِعْلاً يوجدُ في الآيةِ بعدَ الفعلِ «قاتلوهم»، كلُّ هذه الأمورُ تحصلُ إذا حصلَ فِعْلُ القتالِ في «قاتلوهم» أولاً. الأمرُ بيدِك، إذا أردْتَ أن يتحسَّن حالُك عليك أن تقومَ بالتغييرِ فعلاً إلى جانبِ الدعاء؛ حتى يدهشَك الله بعطائه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

أما الاكتفاءُ بالدعاءِ فقط، فهو تكاسلٌ وتقاعسٌ وتواكلٌ لم يأمرنا اللهُ به، وهناك فارقٌ بين الشخصِ المتواكلِ والشخصِ المتوكِّلِ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95]. صحيحٌ أنَّ اللهَ وعدَ الحسنى للطرفيْن، وأنَّ لنا أجرَ الدعاء والأذكارِ، ولكن المجاهدينَ الباذلين للجهودِ همْ أعظمُ درجةً؛ لأنَّنا لهذا خُلِقْنا.

اللهُ جعلَنا خلفاءَ في الأرضِ لنعمِّرَها، وهذا الأمرُ يستوجبُ السعيَ والبذل والعطاءَ؛ لِمَا في ذلك من أجرٍ عظيمٍ عنده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: 20]، كما أنَّ الضربَ في الأرضِ هو فضلٌ منَ اللهِ سبحانه ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: 20]، ومن لا يُسْهِم في إعمارِ الأرضِ فإنَّ اللهَ يستبدلُه بقومٍ آخرينَ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57].

ويرافقُ هذا السعيَ إدراكُ أنَّ الفرجَ قد يأتي من جِهَةٍ أخرى لم يسعَ الفردُ إليها، ولم يحاولْ فيها.

في بدايةِ الدعوة للإسلامِ تعرَّض المسلمونَ إلى أذىً كبيرٍ من قريشٍ، فقامَ الرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإرسال عددٍ منهم إلى الحبشةِ، وقرَّرَ الذهابَ إلى الطائفِ لكي يدعوهم إلى الإسلام، لكنَّ استقبالَ أهلِ الطائفِ له لم يكن جيداً، وقاموا برَمْيِه بالحجارةِ حتى أَدْمَوْا قدميْه الكريمتيْن، وذلك لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرادَ أنْ تكونَ الانطلاقة مِن يثربَ، فسخَّر له دخولها وسطَ فرحِ المهاجرين والأنصار وأناشيدِهم.

الرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطَّط للطائف، ولكنَّ الله أرادَ له يثربُ،

وهـذهِ هـي قِمَّةُ الأخذِ بالأسـباب، أنْ تُخطِّطَ، وتعمـلَ بجِدٍّ دون تكاسـلٍ، أو تواكلٍ، وتكونَ مسـتعداً لأن يأتيَ فرجُ الله منْ جهةٍ لم تسعَ إليهـا حتى تتيقَّنَ أنَّ هذا الفرجَ هو مِـن عند الله، ولم تأتِ به علـى علمٍ عندك. كلُّ الأمورِ تجري بمشـيئةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: 23- 24]. ولعلَّنـا نتذكـرُ هنا كيفَ أنَّ بني إسـرائيلَ عجزوا عـن ذبْحِ البقرةِ؛ لأنهم كانوا ينسبونَ أعمالَهم لأنفسهم، ولم يتمكنوا مِن ذَبْحِها إلا بعـد أنْ أَرْجعُوا الأمـرَ لله ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 70].

لا حجَّـةَ للمتقاعسـين القادرينَ، الحجَّةُ فقـط لمن هو عاجِزٌ بالمـرضِ أو الإعاقـةِ ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النور: 61]. فـإذا لم تكُنْ أيـًا مِن هؤلاء فلا حُجَّةَ لك في أنْ تتواكلَ وتتكاسـلَ وتَمتَنِعَ عن البناءِ والتطويرِ والإنتاج؛ لأنَّ هـذا يعتبرُ ظُلمـًا للنفس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: 97]. مِن عظمَةِ القُرآن أنَّه قابلٌ للفَهْمِ من عِدَّةِ أوجُهٍ وعلى عِدَّة مستوياتٍ، وهذه هي معجزةُ القرآنِ.

الهجرةُ ليس بالضرورةِ أنْ تكونَ بالمعنى الحرفيِّ، أيِ الترحالِ من أرضٍ إلى أرضٍ، فقد تكونُ الهجرةُ بصورٍ أخرى، فمثلاً هِجرةُ فِكرةٍ معينةٍ أو أشخاصٍ معينين، أو حتى هِجْرَةُ عادةٍ ما تسبَّبَت بضررٍ لصاحبها، وجعلتْه مستضعفًا.

المقصودُ من الآية أنَّ الإنسانَ إذا لم يفلحْ في أمرٍ ما عليه أن يغير اتِّجاهه صَوْبَ توجُّهٍ جَديد، ويحاولَ فيه؛ لرُبَّما أتاهُ الفرجُ من هناك. إذا لم تُوَفَّقْ في دراسة تخصُّصٍ معيَّنٍ، فحاولْ أنْ تجد تخصصًا آخرَ قريبًا منه، وإذا لم تُوَفَّقْ في وظيفةٍ معينةٍ، فابحثْ عن مكانٍ آخرَ قد تجدُ فيه مرادَك، وإذا توفاك الموتُ أثناءَ المحاولةِ، فأجرُكَ حاصلٌ عند اللهِ، وتذكَّرْ أنَّ المرءَ يُبعَثُ على ما ماتَ عليه ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 100]. كلما سعى الإنسانُ وحاولَ على عدَّةِ أصعدةٍ حقَّق مفهومَ التوكُّل الذي يَكسو صاحبَه نعمةَ البركةِ في حياته.

لا راحةَ في الدنيا، فهي دارُ التعبِ والكَدْحِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، لا راحةَ حتى نلقى اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، كما يجب ألَّا ننسى أنَّ الإنسانَ سوفَ

يُحاسَبُ يومَ القيامةِ على أيامِ وسنواتِ عمرِه. فقدْ قالَ رسولُ الله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ»[1] (الترمذي)، حاولْ أن تجيبَ عن هذه الأسئلة الآن!

التعبُ في الدنيا يجعلنا نعرفُ حقيقتها، وبالتالي نشتاقُ إلى الجَنَّةِ، ونعملُ لها، ومن لا ينتهجُ هذا الطريقَ سيجدُ نفسه يركضُ خلفَ الدنيا، وفي النهاية لنْ يُصيبَه منها إلا ما كَتَبَهُ اللهُ له.

نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ والهدايةَ.

المراجع

- الترمذي (ت 279)، سنن الترمذي 2417، حسن صحيح.
- الألباني (ت 1420)، السلسلة الصحيحة 342، حسن.
- رياض الصالحين، حديث 585.



(1) رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب في القيامة (4/ 612)، رقم (2417)، وصححه الألباني.

الحديثُ السابعُ قَاطِعُو تَذَاكِرِ الْجَنَّةِ!

هناكَ سلوكياتٌ في حياة الكثيرين ممن يظنُّونها غيرَ مؤذيةٍ، في حين أنَّها تُسبِّبُ الضرَر لهم ولغيرهم، تركيزُ الحديثِ هنا هو عن (تزكية النفس)، تلك المصيدةُ المخيفةُ التي يقعُ فريستها الكثيرونُ دون أنْ يشعروا؛ يظنُّون أنهم يُحسنونَ صُنعًا، ولا يعلمونَ أنَّه أمرٌ نَهى اللهُ عنه في عددٍ من النُّصوص القرآنيَّة؛ كما قالَ تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [سورة النجم، 32]، أي لا تَمْدَحوا أنفسَكم وتعجبوا بها مخبرينَ عن طهارتها وتقواها، وإنَّما عليكم بعبادةِ اللهِ وحدَهُ عند تزكيةِ النَّفْسِ طلبًا للفلاحِ، لا مدحِ الناسِ؛ كما قالَ تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9]، أي طَهَّرَ نفسَه من الذنوب ونمَّاها بالطاعةِ.

فتزكيةُ النفسِ التي نهى اللهُ عنها هي أساس الكِبر والعُجب، فإبليسُ رفضَ السجودَ لآدم متعللاً بأنه أفضلُ منه ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فكانَ عقابُه أنه طُرِد من رحمةِ الله، بغضِّ النظرِ عن أيهما أفضلُ، النارُ أم الطينُ، فلا أحدَ من الخلْقِ مخوّلٌ أنْ يقرِّرَ مَن الأفضلُ؛ إنما هو أمرٌ إلهيٌّ صِرفٌ، ولا يَدَ للخلقِ فيه، ولذلك وجبَ على البشرِ أن يَعُوا هذا الأمرَ، ويتصرَّفوا بناءً عليه.

وتزكيةُ النفسِ ليست فقط تشبّهًا بإبليسَ، بل هي تشبُّهٌ باليهودِ والنصارى أيضًا، فقد تحدَّثَ القرآنُ عن ميولِ كلِّ طرفٍ لتزكيةِ نفسِه وبخسِ الآخرِ، قالَ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة: 113]، ووصفَ القرآنُ حالَهم بأنَّه حالُ مَن لا يَعلمون ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ [البقرة: 113]. وختمَ اللهُ الآية بوضعِ فيصلٍ لهذا النزاعِ يوم القيامةِ ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113]، وذلك بأنَّ اللهَ وحده أعلمُ بالمؤمنين والمنافقين ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: 11]. ويضعُهم اللهُ سبحانه في اختبارٍ حقيقي؛ حيثُ تحدَّاهم أنْ يتمَنَّوُا الموتَ إن كانوا ضامنين أنَّ الجنةَ ستكونُ خالصةً لهم دونَ سائرِ الخَلْقِ ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 94]. ولكنهم لا يتمنَّوْنَ الموتَ؛ لعِلْمِهم بما قدَّمت أيديهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 95]، وليسَ هذا الأمرُ بغريبٍ على المنافقين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: 14]، والسؤالُ موجهٌ لمن يزكُّون أنفسَهم، ويتصرفون على أساسِ أنهم قد ضمنوا الجنةَ بيقين تامٍ: هل أنت مستعدٌّ للموت الآنَ في هذه اللحظةِ؟

ونلاحظُ مظاهرَ تزكيةِ النفسِ في الكثيرِ من المواقف والأماكن، فعلى سبيلِ المثالِ هناك من يتحدَّثُ مدافعًا عن وجهةِ نظره بقوله: إنَّه على حقٍّ، وأنَّ مَن يخالفونَه الرأيَ هم في غَوْرِ الباطل. كيفَ عرفَ أنَّه على حقٍّ، وأنَّ خصمَه على باطلٍ؟ هل أخذَ مَوْثِقًا من اللهِ بهذا، أم أنَّه ضمِنَ مكانَه في الجنَّةِ لمجرد أنَّه اعتقدَ أنه على حقٍّ؟! وما يدريكَ لعلَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد جهَّزَ منزلةً لذلك الشخصِ في الجَنَّةِ أعلى من منزلةِ الذي يظنُّ أنه على حقٍّ. بل إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهانا عن تزكيةِ النفسِ حتى عند التَّعامل مع الكفارِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: 94]، فلستَ أنتَ مَن يقرِّرُ ذلك.

سيدُ الخَلْقِ الذي وصفَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه على خُلق عظيمٍ، خاطبَه الله في أوَّلِ سورة الأحزابِ بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، سيِّدُ الخلْقِ المعصومُ يُوجَّه له أمرٌ ربانيٌّ بأن يتقيَ اللهَ! تأمَّلْها جيداً أيها الغافلُ المزكِّي لنفسه الذي يظنُّ أنَّه قد وصلَ منتهى تقوى الله! وإليك موعظةً أخرى: عندما خاطبَ سيدُ الخلقِ الكفارَ، خاطبَهم بما فيه تَواضُعٌ منه، ودَعوةٌ لهم أنْ يُعْمِلُوا عقولَهم لِيَتبيَّنوا الحقَّ ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 24]. سيدُ الخلقِ المعصومُ خيرُ خلقِ اللهِ لم يزكِّ نفسَه وهو سيِّدُ وَلَدِ آدمَ، فمَن تكونُ أنت أيها الإنسانُ المثقلُ

بالمعاصي والذنوبِ لتفعلَ ذلك؟

ويرجعُ السببُ الرئيسُ لتزكيةِ النَّفس إلى العقليةِ التي ترفضُ فكرةَ تعدُّدِ الآراءِ، ولا ترى إلا الرأيَ الواحدَ، ولا تسمعُ إلا الصوتَ الواحدَ، ولذلك عندما يخرجُ رأيٌ جديدٌ يحصل الصدُّ والردُّ والرفضُ وعدمُ القبولِ، بل قدْ يتمُّ الحُكم على الرأيِ الآخر بأنه خاطئٌ لمجرد أنَّه مختلفٌ. ويزدادُ الأمرُ حِدَّةً إذا كانَ أحدَ الأطرافِ ذا سُلطةٍ وقوَّةٍ، وبالتالي فهو معتادٌ على التفرُّد بالرأيِ وعدمِ مناقشتِه في قراراتِه، فنجدُ الأبَ يرفضُ اقتراحَ ابنِه أو ابنتِه لمجردِ أنَّه أكبرُ منها سناً، وبالتالي هو أدرى منها بأمورِ الدُّنيا، وأنَّه عندما أصبحَ أباً، فهذا يعني أنَّه تخرجَ منْ مدرسةِ الحياة، وباتَ يملك كلَّ الخبراتِ في الدنيا، ولم يعدْ هناك شيءٌ جديدٌ يتعلمُه، فقد تعلّم كلَّ شيء! ونجدُ المعلِّمَ يستشيطُ غضباً عندما يقومُ أحدُ تلاميذِه بتصحيحِ خطأٍ ما، أو شرحِ معلومةٍ استعصى على المعلمِ شرحُها لعدمِ درايتِه بها، وفي بعض الأحيان ينتهي المطافُ بهذا الطالبِ إلى نوعٍ من أنواع العقابِ المؤذي كالطَّرْدِ من قاعةِ المحاضرات، أو الفصلِ من المادةِ، أو الرسوبِ فيها! وكأنَّ الخبراتِ تأتي تلقائياً مع التقدُّم في العمرِ، ولا علاقةَ لها بظروفِ المرء، وكأنَّه من المعيبِ أنْ يعلمَ شخصٌ يصغرني سنّاً شيئاً أنا أجهلُه، أو لا أملِكُ معلوماتٍ كافيةً عنه: عقلياتٌ مُتعَبة ومُتعِبةٌ.

وهنا نسترجع المقولةَ (أَكْبَرُ مِنْكَ بِيَوْمٍ أَعْلَمُ مِنْكَ بِسَنَةٍ)، وسأتكلمُ عن رأيي الشخصيِّ دونَ أن أفرضَهُ على أحدٍ، مع تقبُّلي لاختلاف الآراءِ، راجيةً من اللهِ تعالى أن يعاملَني القارئ بالمِثل، ولا يفرضَ عليَّ قناعاتِه. التقدُّمُ في العمر لا يعني بالضرورةِ اكتسابَ الخبراتِ في كل نواحي الحياةِ، إنَّما هي المواقفُ، والظروفُ والتجاربُ التي يمرُّ بها الفردُ هي التي تعلِّمُه دروسًا في الحياةِ، وتكشفُ له حقيقةَ الدُّنيا.

في أغلبِ الأحيانِ تكونُ هذه الدروسُ باهظةَ الثمن؛ لأنَّ التجربةَ تكونُ قاسيةً ومريرةً، قد تَترُكُ شرخًا في نفسِ الإنسان، وجرحًا عميقًا لا يندمِلُ، خاصةً إذا رافقَ هذهِ التجربةَ تضحياتٌ وتنازلاتٌ لا تُعوَّضُ.

بإمكانِ القارئ أنْ يفهمَ المقصود من الكلام إذا ما قارنَ بين أسلوبِ كلامِ طفلٍ ذي عشرِ سنواتٍ عاصرَ حربًا شعواءَ، ونامَ تحتَ قصفِ وابلِ القذائف، وافترشَ أرضًا لم تتوقفْ عن الاهتزازِ بسببِ وقْعِ الدبَّاباتِ المزمْجِرَةِ بأسلوبِ كلامِ رجلِ أعمالٍ كهلٍ تمتَّعَ بالثروةِ والرفاهيةِ في بلدٍ لم يشهدْ ضيقَ ذاتِ اليدِ، ولمْ يستنشقْ رائحةَ البارودِ، ولم يعرِفْ أهلُه إلا رغيدَ العيشِ، ستلاحظُ فارقًا كبيراً جداً بين أسلوبِ الشخصيْنِ، وستشعرُ أنك عندما تتحدثُ مع الطفلِ، وكأنما تتحدثُ مع شخصٍ بالغٍ راشدٍ

زهِدَ في الدنيا بعد أنْ كشفتْ له عن وجهها الحقيقيِّ، في حين أنَّك علـى الأغلبِ لنْ تسـمعَ إلا لغـةَ الأموال والبورصـةِ والعملاتِ عندما تتحدثُ مع ذلك الرجلِ الغنيِّ المترفِ.

أنا على يقينٍ أنَّ القارئَ اسـتحضرتْهُ بعضُ المواقف المشابهةِ التي شـهدَها شـخصيّاً في مجتمعِه ومحيطِه. في الحياةِ أشخاصٌ أعطاهـم اللهُ الحـظَّ الأوفـرَ مـن رغيـدِ العيـشِ، بحيـث إنَّهم لم يشهدوا بؤسـاً أو شقاءً في يومٍ منَ الأيامِ.

أقـرَبُ مثـالٍ هـم أفـرادُ العائـلات المالكـةِ في الممالـكِ عـبرَ العصورِ، فهم يتمتَّعون بجميعِ سـبُلِ الراحةِ والرفاهيةِ المتاحةِ لهم في عصرهم وزمنهم، ولا يحملونَ هَمّاً؛ لأنَّ كلَّ شـيءٍ متوفِّرٌ لهم، تخيَّلْ أنْ تعيشَ حياتَهم، حياةً بلا مشاكلَ ولا منغصاتٍ، ولا هموم، ولا حتـى أحلامٍ؛ حيث إنَّ كلَّ ما تشـتهيه تجدُه أمامَك، فلا يكونُ هناك داعٍ لكي تسعى وتعملُ، ناهيك أنْ تتمنى وتحلُمَ وتتخيَّلَ.

والآنَ عنـدي سـؤالٌ: ماهـي الخـبراتُ التي مـن الممكنِ أن تكتَسِبَها إذا عِشْتَ حياةً كهذه؟

وسـؤالٌ آخرُ: هـل تعتقدُ الآن أنَّ مَن هوَ أكـبرُ منك بيومٍ أعلمُ منكَ بسَنَةٍ؟

إذا وضعوكَ أنت وأحدُ الأمراءِ ممن يكبُرك سنّاً في جزيرة نائيةٍ، مَن منكما سيتمكَّنُ من التأقلُمِ مع الوضعِ الجديدِ، وتذليلِ الصعابِ

للبقـاءِ على قيدِ الحياة؟ نفهم أنَّ خبراتِنا ومعرفتنا للأمور لا تُقاس بمـدةِ تواجدنـا على هذا الكوكـبِ، إنَّما بما نُواجِهُـه مِن تحدياتٍ ومواقفَ تُصْقِلُ شخصيَّاتِنا، وتطوِّرُ مداركَنا، وتَجعلُنا أكثر نضجـًا وأقدرَ على مجابهةِ مصاعبِ الحياةِ وتسييسها لصالحنا؛ لذلك مِن الأفضلِ ألَّا نسـتخدِمَ فارقَ العمرِ كحجَّة لكـيْ نفرضَ آراءنا على مَن هم أصغرُ منَّا سنـًا، معلِّلين ذلك بأنَّنا أكثرُ إلمامـًا بأمورِ الحياةِ.

تذكَّـر دائمـًا أنك مهما تعلَّمْتَ، هناك دائمـًا مَن هو أعلَمُ منك ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 76] وقـدْ يكـونُ الأعلمُ منكَ أصغرَ منك سنـًا، فلا تغترَّ ولا تزكِّ نفسَك، ولا تنسَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 74]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 65]، حقـًا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: 19].

هذه الآياتُ تُعلِّمُنا ألَّا نغترَّ بما نملِك من معلوماتٍ؛ لأنَّهُ حتى أصحابُ الخبراتِ مهما عظُمَ حجمُ خبراتِهم، لا يزالونَ يجهلونَ الكثيرَ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 84]، و بالتالي كانَ من الواجبِ تجنُّب الغرورِ والعُجبِ، وإدراكُ حقيقةِ أنَّ الله وحدَه هو مَن يهدينا ويرشِـدُنا، وهو الذي بكلِّ شـيءٍ عليـمٌ؛ هذه الحقيقةُ هِيَ مَا رَدَّ اللهُ به على الملائكة عندما قالوا:

﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]،

فكانَ الردُّ الإلهيُّ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]، فقامَ سبحانه بتعليمِ سيِّدِنا آدمَ كلَّ الأسماءِ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، لذلك لا تتباهَ بما تعلَمُ؛ لأنَّك في الواقعِ لم تفعَلْ شيئًا، فاللهُ هو مَن يُعلِّمُك، بدليل أنَّه عندما أمرَ سبحانه الملائكةَ أن يُنَبِّئُوه بأسماءِ الأشياء، عجَزوا عنْ ذلك ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 31]، ولكنْ «صادقين» في ماذا؟ صادقين في قولهم: إنَّ الخليفةَ يفسِدُ في الأرض ويَسْفِكُ الدماءَ، بينما هم يسبِّحونَ بحمدِ ربِّهم ويقدِّسونَ له.

ولكنَّ الملائكةَ عجزوا عن تسميةِ الأشياءِ لجهلهم بأسمائها، وأدركوا أنَّهم لا يعلمون إلا ما يُعلِّمه اللهُ لهم ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

الشاهدُ من القصةِ أنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أمرَنا أنْ نتجنَّب تزكيةَ النفسِ، وحتى الملائكة لم يستَثْنِهم من هذا الأمر، إبليسُ زكَّى نفسَه وحسد آدمَ تكبَّرَ عن طاعة اللهِ بالسجودِ له؛ فكانَ عقابُه أنه طُرِدَ من رحمةِ الله، والملائكةُ زكَّوْا أنفسَهم وهم لا يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهم، فكانتِ النتيجةُ أنْ جعَلَهم اللهُ سبحانه يتعلَّمون الأسماءَ على يدِ سيدنا آدمَ الذي شكَّكوا في قُدْرَتِه أنْ يكونَ خليفةً في الأرضِ.

وهنا نتذكرُ قصةَ بقرةِ إسرائيلَ، وكيفَ أنَّ بني إسرائيل تصرَّفوا على أساسِ أنهم يعلمون كلَّ شيءٍ، وهمُ الأدرى بالبقرةِ المناسبةِ، ظلُّوا يطلبونَ من النبيِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يعطيَهم مواصفاتِ البقرة المطلوبةِ رغم أنَّ الأمرَ كانَ أن يذبحوا أيَّ بقرةٍ وحسب. ولم يتمكَّنْ بنو إسرائيل من إيجادِ البقرة، إلا عندما سلموا الأمرَ لله وحده ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 70]. هي عبارة «إِنْ شَاءَ اللهُ» التي أنقذَتْهم وبها اهتدوا إلى ضالَّتِهم، وليسَ عن طريقِ عِلْمِهم ولا خبراتِهم.

وكذلك الحالُ مع قصَّةِ قومِ نوحٍ الذين زكَّوْا أنفسَهم، واعتبَروا أنَّهم أفضلُ من الذين اتَّبعوه ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: 27]. ويتكرَّر استخدامُهم لوصْفِ «الأراذِلِ» في سورة الشعراء ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: 111]. ولكنَّ النبيَّ نوحًا لم يُزكِّ نفسه، ولم ينظرْ لمن اتبعوهُ نظرةً دونيةً كما فعلَ قومه ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ [الشعراء: 112-113]، وكذلك في سورة هود ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 31]. «لَمِنَ الظَّالِمِينَ» أي أنَّ مَن يُزكِّي نفسه هو إنسانٌ «ظَالِمٌ» بنصِّ القرآن.

ونذهبُ إلى سورة الكهفِ، ونستذكرُ قصةَ صاحبِ الجَنَّةِ الذي كان مُغتراً بمُلْكِه، وظنَّ أنَّ هذا المُلْكَ لن يزولَ، فلنتأملِ الوصفَ الدقيقَ في القرآن:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 35-36]، كيفَ عَلِم أنَّه سيجدُ خيراً من جنَّتِه في الآخرةِ؟ من أين أتى بكل هذا اليقينِ؟ هل أخذَ موثقًا من الله بهذا؟ مَن يزكِّي نفسَه هو شخصٌ ظالمٌ لنفسِه كما وصفَه القرآنُ.

ويقودُنا الحديثُ هنا إلى واحدةٍ من صورِ تزكيةِ النَّفس، ألا وهي التألِّي على الله؛ وهي كارثةٌ حقيقيَّةٌ يجهلُها الكثيرون. التألِّي على اللهِ يكون بأنْ يُقرِّرَ الفردُ مصيرَه، أو مصيرَ شخصٍ ما، كأنْ يقولَ عباراتٍ مثلَ (لنْ يستجيبَ اللهُ لك)، و(دعواتُك لن تتجاوزَ سقْفَ غرفَتِكَ)، و(لنْ يُسامحَك اللهُ)، و(لنْ يغفرَ الله لفلان)، و(اللهُ لا يرحَمُ فلانًا)، و (فلانٌ مصيرهُ جهنَّمُ وبئس المصيرُ). كيفَ عَلِم مصيرَ غيره؟ هل اطَّلع على قوائمِ أهلِ الجنَّة وأهلِ النَّار؟ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 78]، كلُّ هذا لمجردِ أنَّ فلانًا يخالفُه الرأيَ، ولذلك يراه مخطئًا ومذنبًا بشكلٍ تلقائيٍّ، ألا يَعلَمُ هؤلاء المتألُّون بمصير التألِّي

على الله تعالـى؟ ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾ [مريم: 79- 80].

لسـتَ أنت مَن يُقرِّرُ إذا كنتَ على صوابٍ و غيرُك على خطأٍ، أو إذا كنـت أنت مصلحـًا في الأرض وغيرُك من المفسـدين، اللهُ وحـده أدرى وأعلـمُ بذلـك ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ [البقـرة: 220]، وهـو أعلمُ بمَن اهتدى ومَن ضـلَّ، والهِدايةُ تكون منَ الله وحدَه، يقولُ تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: 117].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: 7].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: 30].

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [القصص: 85].

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ [الإسراء: 54].

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم: 31].

﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: 84].

وهنا أطلبُ من القـارئ أنْ يلاحظَ كـمَّ هذه الآياتِ التي يؤكِّد بهـا اللهُ تعالى أنه وحدَه الأعلمُ والأدرى بكلِّ شـيء، لاحظوا أنَّ

الفعـل «أَعْلَمُ» مذكورٌ في كل آيـةٍ: «الأَعْلَمُ»، كرِّروها في سِـرِّكم عدَّةَ مرات حتى يترسَّخَ المعنى في عقولكم!

وبما أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلمُ بنا وبنوايانا وبمَن هو على هدىً ومن هو على ضلالٍ مبين، كان لزامـًا علينا ألا نُزكِّيَ أنفسـنا، ولا نضعَ افتراضات مسـبقةً بأنَّنا أهدى من غيرنا، وأنَّنا على الصراطِ المسـتقيمِ، أو أنَّنا ضمنَّا منزلتنا في الجنة، إذا رأيت شخصـًا على ضلالـة ما (كالتبرُّج، أو مصاحبةِ البناتِ، أو شُـرْبِ المنكرات)، فلا تفترضْ مسـبقـًا أنَّك أفضلُ منه، فربمـا أنتَ تمارسُ معاصيَ أفظـعَ من معاصيـه، وأنتَ لا تدري، وربما هو قـامَ بعملٍ صالحٍ صغيرٍ أكسبَه حسناتٍ أذهبْنَ كلَّ سيئاته.

وجاءَ النهي عن تزكيةِ النفس بأوامرَ صريحةٍ في القرآن الكريمِ، قال تعالى:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 32].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾

[النساء: 49].

وهذا يسـتدعي ألَّا نتصرفَ بكِبْرٍ معَ غيرِنـا، ونَتذكَّرُ دائمـًا أنَّ اللهَ سبحانه أسدلَ علينا ستارَ السترِ الذي لولاه لتكاشفتِ الوجوهُ الحقيقيةُ للبشر.

تخيَّلْ لو أنَّ للذنوب رائحةً! أو أنَّ النوايا تُكتب على الجباهِ!

الحمدُ لله على نعمةِ السِّتْرِ.

وحتى عند التوبةِ من المعاصي، علينا أن نَتَذَكَّرَ أنْ لا نهايةَ للهِدايةِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]، وقالَ تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: 76]. الفِتيَةُ الذين وردتْ سيرتُهم في سورة الكهف كانوا مؤمنين، وكانوا يعيشون تحتَ حُكم ملكٍ ظالمٍ أرادَ قتْلَهم، فما كانَ منهم إلا أنْ قرَّروا الفرارَ إلى اللهِ، والاختباءَ في الكهف، ووصَفَهُم القرآنُ بأنهم ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣﴾ [الكهف: 13]، هم شبابٌ يافعون مؤمنون فرُّوا بدينهم إلى اللهِ، ولكن الأمرَ لم ينتهِ هنا، فقدْ زادهم الله إيماناً وهدىً. لِمَ هذه الزيادة؟ حتى لا يكونَ هناك نهايةٌ للهِداية خشيةَ أن يُصابَ المؤمنُ بالعُجب الذي قدْ يقودُ إلى خطيئةِ الكِبْر التي كانت سبباً في تحريمِ الجنَّةِ على إبليسَ.

لا نِهايَةَ للهِداية: طالما أنَّ المرءَ حيٌّ يُرزقُ، فهو لا ينفكُّ يتعلَّم ويكتسبُ الخبراتِ، ويرتكبُ المعاصي ويندمُ عليها، ويلجأُ إلى التوبة والاستغفار، ثم يرتكبُ ذنوباً جديدةً، ويعودُ إلى التوبة من جديد، وهكذا دواليك.

شهادةُ التخرجِ من مدرسة الحياةِ هي شهادةُ الوفاةِ!

وهنا نتذكَّرُ الحديثَ الشريفَ عن عبد الله بْنِ سَلَامٍ عن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْكِبْرِ»[1] (الألباني)، كلما تابَ الإنسانُ عن معصيةٍ ما، عليه أنْ يضع في الحسبانِ أنَّ الأمر لم ينتهِ عند هذا الحدِّ، وأنَّ هناك المزيدَ من التوبةِ والهِداية، كما لا ننسى أنَّ قلوبنا بيَدِ الرحمنِ يقلِّبُها كيف يشاءُ، وهو وحدَه بيده هدايةُ البشَرِ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 88]، ولذلك نسألُ اللهَ الثباتَ على طريق الهِدايةِ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]، ويقودُنا هذا الحديثُ إلى ما يُسمِّيه البعضُ «فنَّ النُّصح».

فنُّ النُّصْحِ

نَعمْ؛ النصيحةُ فنٌّ، ليس من السهلِ إتقانُه، ليست النصيحةُ بالأمر السَّهلِ؛ لأنها تحتاجُ إلى مهاراتٍ عاليةٍ في أسلوبِ الكلامِ، ودرجةٍ عاليةٍ من اللباقة والمقدرةِ على الإقناع في توصيلِ الرسالةِ، بل إنَّ الموضوعَ قد يلزمُه درايةٌ وتمكُّنٌ من فَنِّ الخِطاب والحِوارِ.

كثيرونَ يظنُّون أنَّ النصيحةَ تعني أنْ تُملَى النصائحَ على المنصوحِ مفترضين أنَّه سيعملَ بها دون اعتراضٍ أو تردُّد،

(1) رواه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، (1/ 91)، رقم (93).

وبالتأكيد عندما يكون الناصحُ ذا سُلطة على المنصوحِ (كالأبِ، أو المعلِّمِ، أو المديرِ)، فإنَّ تسميةَ النصائحِ تتحولُ تلقائيًا، وتصبحُ أوامر، وبطبيعةِ الحال هذه الأوامرُ ليست محلَّ نقاشٍ أبداً؛ لأنَّها خرجَتْ من أفواه مَن يعلمون كلَّ خبراتِ الحياة، ولم يَعُدْ هناك أيُّ جديدٍ يتعلمونه، وبالتالي فهُم على صوابٍ دائمًا!

أخي الناصِحُ، أوَّلُ شيءٍ يجبُ أنْ تَعِيَهُ عند إسداءِ النصيحةِ، هو أنَّكَ ناقصٌ ينصحُ ناقصًا، ولستَ كاملاً ينصح ناقصًا، وبالتالي فلا داعيَ لذلك الأسلوبِ المستفزِّ المُنَفِّرِ الذي يتَّبِعُه كثيرٌ ممن يقدِّمون النُّصحَ، والذي ينتقصُ فيه من شأنِ المنصوح، بمعنى آخر ينبغي على الناصحِ ألا يزكِّيَ نفسه، وأن يتذكَّر أنه قد يسدي نصائحَ على أمور هو يقوم بما هو أسوأُ منها، وقد أشارَ القرآنُ إلى هذا النوع من البشرِ في سورة البقرة من خلال هذه الآياتِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة: 204-206].

وجبَ التنبيهُ هنا على أنِّي لا أَقْصِدُ بهذا الكلامِ عدمَ إعطاء النصائح، فالنصيحةُ مهمَّةٌ، وقديمًا قالوا: إِنَّهَا بِجَمَلٍ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يكونَ الشخصُ حذراً عندما ينصحُ شخصًا آخَرَ، وأنْ

يراعيَ مشاعرَه، ويتصرَّفَ بصدَدِها، ويكونَ ذلك بإسداءِ النصائح للشخصِ بعيداً عن أعين الناس، كخطوةٍ أولى حتى يثبتَ بها الناصحُ حُسْنَ نِيَّتِه بأنَّه ينصحُ مِن بابِ الاهتمامِ، وليسَ من باب التباهي أمامَ الناس. يُقدِّم لنا الإمامُ الشافعيُّ طريقةً نعلَمُ بها فِقْهَ الشخصِ الذي يُقدِّم النصائحَ ومقصِدَهُ؛ حيث يقول «إِذَا نَصَحْتَنِي عَلَى انْفِرَادٍ فَقَدْ نَصَحْتَنِي، وَإِذَا نَصَحْتَنِي أَمَامَ النَّاسِ فَقَدْ فَضَحْتَنِي».

وهنا نستشهدُ على طريقةِ النُصح الصحيحةِ بقصَّةِ نزولِ الوحيِ على النبيِّ الكريمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما رجعَ من الجَبَل إلى السيدةِ خديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كان خائفاً يرتعِشُ، وكانَ يردِّدُ «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، أي غَطُّوني، وأخبرَ السيدةَ خديجةَ بالأمر. عندما انتبهَتْ لِخَوْفِهِ آثَرَتْ أنْ تُهدِّئَ من رَوْعه أوَّلاً قبل أنْ تنصحَه حتى يطمئنَّ للنصيحةِ ويتقبَّلَها.

عندما قال لها «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، كان ردُّها على الفور «كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[1] (صحيح البخاري). في

---

(1) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (6/ 173)، رقم (4953)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (1/ 139)، رقم (160).

البدايـة قامـتْ بتهدئتِه وطمأنَتِـه، ثم بعد ذلك اقترحـتْ عليه أنْ يستشيرَ ورقةَ بنَ نوفلٍ في الأمرِ.

لماذا لا نَنصحُ بطريقةِ السيدة خديجةَ؟ أوَّلاً نُطَمْئِنُ الشخصَ، ونَكسَـبُ ثِقتَـهُ، ثم نُقـدِّم النَّصيحةَ على هيئةِ اقـتراحٍ، بدلًا من أنْ نَسـتخْدِمَ عباراتٍ مثلَ (أنـتَ فَعلْتَ كذا، وأنـت قُمْتَ بكذا، وما كان عليك أنْ تَفعَلَ ذلك)، لماذا لا نسـتخدم عبارات مثل: (كُلُّنا بشرٌ، وكلُّنا نُخطئُ)، لاحظْ أنَّ تكرارَ كلمة (أنت) يجعَلُ الشخصَ يبغضُ النَّصيحةَ، ويرفُضُها مهما كانَ الكلامُ صَحيحًا ومنطقيّا.

لمـاذا لا نَقـترحُ أنْ نَتعـاوَنَ علـى التوبـة، ونعمـل مَعًا على إصلاح أنفسِنا؟ إنَّه لأمرٌ جميلٌ جداً قدْ يجعلُنا نُكتَبُ عند اللهِ من المتحابِّين فيه، ويتباهى بنا أمامَ الملائكةِ.

نقطـةٌ أخيـرةٌ وَجَبَ التنويـهُ إليها، وهـي أنَّ النصيحـةَ تُعطَى ولا تُفـرضُ، بمعنـى أنَّ الناصـحَ يُدْلِـي بدَلْـوِه، ثـم يَنْصَـرِفُ، يَنْصَـرِفُ ويَـتركُ الشَّـخصَ المنصـوحَ يفكِّـر في النصيحـةِ، فهو أدرى بمـدَى نَفْعِهـا لـه، وإذا كانَ الناصحُ شـديدَ الحرصِ على مصلحةِ المنصوحِ، فهناك دعوةٌ بظهرِ الغيبِ جعلَها الله سـبحانه مـن الدعـواتِ المسـتجابةِ، الدعـوةُ بظَهْرِ الغيبِ هـي في صالحِ الطرفيْنِ: فهي لا تَجْرَحُ الشـخصَ المنصوحَ، وتُسـاعدُ الناصحَ علـى تجنُّـب العُجبِ وتزكيـةِ النفسِ، وهـذا دليلٌ آخـرُ على أنَّ

النصيحـةَ لا تُفـرَض، إنما هي اقتراحٌ يُعطى ويُـترك الأمرُ كلُّه للهِ من قبْلُ ومـن بَعْدُ، فهو وحدَهُ الذي يهدي من يشـاءُ، وَالنصيحةُ على شرطِ الإخلاصِ لا على شرطِ القبولِ:

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: 142].

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].

ليسَ مـن المهـمِّ أن نثبتَ لغيرنـا أننا على صـوابٍ، الأفضلُ دائمـًا أنْ نترك الأمرَ لله، وهو وحده أعلمُ منا بما هو خيرٌ لنا.

﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: 26].

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: 135].

هناك أمرٌ يجب التنويهُ إليه هنا: قبل أن تُقدِّمَ النصيحةَ لشخصٍ مـا، تأكـد أولاً أنَّ مـا يقومُ به هـو تَصرُّف خطأٌ فعلاً، ويسـتدعي النُّصحَ؛ فقد يكون تصرُّفُه أو قرارُه سليمـًا، ولكنَّ كلَّ ما في الأمر أنَّ هـذا التصرفَ لـمْ يُعجبْكَ، ولم يأتِ على مزاجِك وبحسـب هـواك! يجـبُ أنْ يعلم الجميعُ أنَّ الاختـلافَ لا يعني الخلافَ، وأنَّ بإمكاننـا أنْ نتعايـشَ مع بعضنا البعض، ونتقبَّـلَ اختلافاتِنا، ونُركِّزَ فقط على ما يَجْمَعُنا من نقاطٍ مشتركةٍ.

الاختلافُ سُنَّةُ اللهِ في الكوْنِ، وحتى آياتُ القرآن الكريمِ تخضع لتفسيراتٍ مختلفةٍ، فلا داعيَ للخلافِ بسببِ الاختلافِ، فنحن لم نشهدْ خَلْقَ الكَوْنِ ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: 51]. لذلك لا أحدَ يستطيعُ أن يجزمَ أنَّ رأيَه هو الصوابُ، بل قد يتواجَدُ الخطأ في النصيحةِ في حدِّ ذاتها، وهو أمرٌ واردٌ جداً، ولا يَجوزُ استبعادُه.

نحنُ نذهب إلى المقهى ونطلب مشروباتٍ مختلفةً: قهوةً، أو شايًا، أو غيرَها، ونجلسُ معًا على طاولة واحدةٍ، ونتحدَّثُ، ونسجِمُ في الحديث رغم أنَّ كلًّا منا اختارَ مشروبًا مختلفًا، ومع ذلك نَتقبَّلُ هذا الاختلافَ، بل لا ننتبِهُ له من الأساس! لماذا لا نعتبرُ الحياةَ كالمقهى الكبيرِ الذي يرتاده الزبائنُ، ويطلبونَ طلباتٍ مختلفةً، ومع ذلك ينسجمُ الجميعُ مع بعضِهم البعضَ رغمَ اختلافِ طلباتِهم؟ أنا أعشقُ القهوةَ ولكنَّ هذا لا يعني أنْ أعتبرَ مَن لا يَشْرَبُها مُخطئًا، وأنا على صوابٍ! كما أنِّي لست مُخطئةً لأني لا أستسيغُ الشاي، ولم أتذوَّقْه في حياتي. بمعنى آخرَ: أنت حرٌّ ما لم تضرَّ، اترُكْ أمْرَ التزكيةِ لله تعالى، فهوَ وحدَه أدرى بمَن هم على صوابٍ، ومَن هم على خطأٍ، وهو أعلمُ بمَن اتَّقى.

مُختَصَرُ القولِ نجدُه في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾

[الحجرات: 13] قال «أَتْقَاكُمْ»، ولم يقل: أكبَرُكُم سناً، أو أَعْلَاكُمْ مكانةً، أو أَكْثَرُكُم ثروةً أو عِلْماً أو نَسَباً.

يجبُ أن نتذكّر أنَّنا لن نعلمَ مَن هو الأتقى، فقدْ يظنُّ أحدُهم أنَّه بلغَ أقصى درجاتِ التقوى في حين أنَّه أشقَى الخلْق، فمَهما بلغَتْ درجةُ إيمانِك وتَقْوَاك، تذكَّرْ أن لا أحدَ يضمَنُ الجنَّةَ، فلا تتصرَّفْ على أساس أنَّك بتَوْبَتِكَ واستِقامَتِك وتقرُّبِك إلى الله قدْ قطَعْتَ تَذاكِرَ الجنَّةِ، ولم يَعُدْ يَنْقُصُكَ إلَّا أنْ تنتظِرَ مَوْعِدَ الرِّحلَةِ إليها؛ لأنَّ هذا الحالَ لا يختلِفُ عن حالِ مَن أخْبَرَنا اللهُ عنهم ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35]. هذا التَّصَرُّفُ هو أمنٌ من مَكْرِ اللهِ، وهُو مِن المكارِه، ولا يَفْعَلُه إلا القومُ الخاسرون، فلا تَكُنْ منهم.

اللهُمَّ لا تَجْعَلْنَا مِن الَّذين ضلَّ سَعْيُهُم في الحياةِ الدُّنيا وهم يَحْسبونَ أنهم يُحسنون صُنعاً.

المراجع:

- الألباني (ت 1420)، إصلاح المساجد 170. صحيح.
- صحيح البخاري (6982).



كانَ هنـاك محـامٍ عربيٌّ مسـلمٌ عرفْتُه في السـنواتِ الماضيـةِ الأخيرةِ، هـذا المحامي عـاشَ كلَّ حياتِه في بلـدٍ عربـيٍّ مسـلِمٍ، ودرسَ أربعَ سـنواتٍ في كليـةِ القانونِ في بلدٍ عربيٍّ مسـلِمٍ، تعرّف أثناءَها على أحكامِ الشَّرْعِ وقوانين الدَّولة حـولَ حقوقِ المـرأةِ والزوجةِ، أي أنَّـه درَسَ حُكم معاملـةِ المرأةِ شـرعـًا وقانونـًا، ودرسَ أنَّ النِّساءَ شَـقائقُ الرِّجال، وأنَّهنَّ القواريرُ المُؤْنِساتُ الغالياتُ، وأنَّهُ ما أكرَمَهن إلا كريمٌ، وما أهانَهنَّ إلا لئيمٌ.

نعمْ هـذا المحامي يعرفُ تمامَ المعرفة أنَّ سـوءَ معاملةِ الأنثى سواء لفظيـًا أو جسديـًا يجعلُ منه لئيمـًا في حُكْمِ الإسلامِ، وبطبيعةِ الحـالِ هذا المحامـي يعلم أنَّ الجنَّـةَ تحت أقـدامِ الأمهاتِ، وأن بِـرَّه بوالدتـه هو أمرٌ صريـحٌ مأمورٌ به وقطعيٌّ لا نقـاشَ فيه، بل إنَّ هذا المحامي يعلم أنَّ الزواجَ يكون إمسـاكـًا بمعروفٍ أو تسريحـًا بإحسـان، ويعلمُ بأن للأبِ بيتـًا في الجنَّةِ على كل بنتٍ يربيها تربيةً صالحةً، وهذه خصوصيةٌ لم يعطِها اللهُ سبحانه للذُّكور من الأبناء.

وكذلك هذا المحامي يعلمُ أنَّ اللهَ سـبحانه اعتبرَ مولدَ الأنثى، كلِّ أنثـى على وجـهِ الأرض منذُ بـدأَ الخلْقُ، بُشْـرَى، ولـم يعتبرْ مولد الذكرِ بُشـرى، باسـتثناء إسـحاقَ ويعقـوبَ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ

﴿فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: 71] وعيسى ابنِ مريمَ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: 45] ويَحْيَى ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ [آل عمران: 39] فهذه البُشرى هي خصوصيةٌ لهم دون سائرِ ذكورِ البشريَّةِ. وغيرها من الأحكامِ الشرعيَّةِ والقانونيَّة المعروفةِ عند الأغلبيَّةِ من عامَّةِ الناسِ ممن لم يدرسوا القانونَ، ولكنهم على دراية بمنزلةِ المرأةِ العظيمةِ في الإسلام، وتكريمِ اللهِ لها.

وبعدَ كلِّ هذا الحديثِ يصدِمُنا المحامي بقولِه في إحدى الحواراتِ: (إنَّ المرأةَ مجرَّدُ شيءٍ!) نعمْ هكذا قالَ بالحرْفِ الواحِدِ: «المرأةُ مجردُ شيءٍ»، المرأةُ التي هي زوجتُك، وابنتُك، وأختُك، وحفيدتُك، وقبلَ كلِّ هؤلاءِ هي «أمُّك، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ»، أصبحتْ في نظرِ هذا المحامي «مُجردَ شيء!»، المرأةُ التي حملته في بطنِها وهنًا على وهْنٍ لمدة تسعةِ أشهرٍ كان خلالها يستنزفُ صحَّتَها، ويستهلِكُ الكالسيوم من عظامها، ثمَّ بعدها أرضعتْه عامين كامليْنِ، وسهرتْ على صحته، وصبرَتْ على تربيته وتعليمِه، ولم تدَّخرْ جهداً في الدعاءِ له بالتوفيق والنَّجاح، حتى تخرَّجَ من كليةِ القانون، وعندها وضعَ رِجلاً على رِجل وقال: إنَّ المرأةَ «مجردُ شيءٍ!»، المرأة التي خلقَها اللهُ

تعالى ليسْكُنَ إليها الرجُل، يراها هذا المحامي (مجرَّدَ شيءٍ!). المرأةُ التي جعلَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مكافأةً للذَّكر المُسْلِمِ في الجنَّة؛ ليستمتعَ معَ زوجاتِه الحوريَّاتِ، أصبحَتْ في نظرِ هذا المحامي خريجِ كليةِ القانون «مجرَّدَ شيءٍ!».

لِلعلمِ عندما قالَ هذا المحامي (المرأةُ) فقدْ شَملَ كلَّ نساءِ الأرض بمَن فيهن والدتُه وزوجاتُ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا الوصف، أي أنَّ والدتَه وزوجاتِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سوفَ يَكُنَّ ضِمْنَ خُصومِه يومَ القيامة؛ ليَحكُمَ اللهُ بينهم حينها، ولا قولَ بعدَ قولِه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: 57-58].

بقدرِ ما أغضبني كلامُ المحامي، بقدر ما أُشفِقُ عليه!

اللهمَّ ائْجُرْنا!

ملاحظةٌ سريعةٌ قبل أنْ أدخلَ في موضوع الحديثِ: سمعتُ مؤخراً أن هذا المحاميَ قدْ تزوَّجَ من «مجرد شيء» بعدَ أن أمضى بعضَ الوقت وهو يبحثُ عن «مجرد شيء» مناسبٍ لكي يتزوَّجَه! وصدقَ الله العظيمُ حين قالَ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

أسألُ اللهَ أنْ يجعلَ ذريتَه كلَّها من «مجرد الأشياء»؛ ليصبحَ اسمُه «أبو الأشياءِ»!

لعلَّ القارئ يستفهمُ عن السبَبِ وراءَ سردِ قصةِ المحامي عند الحديثِ عن النساءِ في حياة النبيِّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. أطلبُ من القارئِ أنْ يستمرَّ في القراءة، وسيدرِكُ الرابطَ بين الموضوعيْن شيئًا فشيئًا.

عندَ التأمُّل في قصة سيدنا موسى، نلاحظُ أنَّ هناك أربعَ سيداتٍ كانَ لهنَّ عظيمُ الأثر في إنقاذِ حياته ومساعدته: والدتَهُ، أختَهُ، امرأةَ فرعونَ، وزوجتَهُ.

ولْنبدَأْ بالوالدةِ

كلُّنا يعلمُ أنَّ قومَ إسرائيلَ كانوا مستضعفين منْ فرعونَ، وكانَ يستعبِدُهم، ويجبِرُهم على العملِ بالسُخْرَة، إضافةً إلى ذلك فقد أصدرَ فرعونُ قراراً بقتْلِ الذكورِ حديثي الولادةِ من بني إسرائيلَ عامًا بعدَ عامٍ.

شاءَ اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنْ يولدَ النبيُّ موسى في العام الذي يتمُّ فيه قتْلُ الذُّكورِ من مواليد بني إسرائيلَ. كحالِ كلِّ أمٍّ، خافتْ أمُّ موسى عليه كثيراً، وأرادَتْ أن تحمِيَه من القتْلِ، فأوحى إليها ربُّ العالمين أنْ تُرْضِعَهُ، ثمَّ تلقيَه في البحرِ:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: 38-39].

لنتأملْ في الآياتِ: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوحى إلى أمِّ موسى أنْ ترضعَه، أمُّ موسى في حالةِ خوفٍ على ابنِها، والوضعُ مُحتَقِنٌ جداً، والرضاعةُ تحتاجُ إلى الهدوءِ والاسترخاء، ومع ذلك تمكَّنَت مِن تنفيذِ أمرِ اللهِ، بلْ إنَّ الأمرَ لم يقفْ عند هذا الحدِّ، فقدْ كانَ هناك اختبارٌ آخرُ بانتظارها، وهو أنْ تُلْقِيَ بموسى في اليَمِّ ليلتقطَهُ عدوُّ الله.

حاوِلْ أنْ تتخيلَ الموقفَ: أنْ يأمُرَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن تلقيَ بابنها الضعيفِ حديثِ الولادةِ في اليمِّ، بلْ ويخبِرُها بأنَّ مَن سيلتَقِطُه هو عدوُّهُ! يخبِرُها أنَّ مَن سيأخذُ ابنَها هو العدوُّ الذي يريدُ قتلَه ومعَ ذلك تُنَفِّذُ الأمرَ بكلِّ ثباتٍ ورباطةِ جأشٍ.

مَن أينَ جاءتْ أمُّ موسى بكلِّ هذه القوَّةِ؟

إنها عاطفةُ الأمومةِ التي يراها البعضُ نقطةَ ضعفٍ، ويستغلُّها بعضُ الأزواجِ المَرضى الحمقَى الجهلةُ لكي يهينوا زوجاتِهم، ويسيئوا إليهن، وهمْ موقنونَ أنَّ الزوجةَ لن تتخذَ أي إجراءٍ؛ خوفاً من أنْ يحرمَها هذا الظالمُ الجائرُ من أبنائها.

ولكنْ في هذه الحالـة نجدُ لعاطفةِ الأمومة بُعداً آخرَ وهو أنَّها تجعلُ الأمَّ شـخصـًا قويـًا جداً، بل المخلـوقَ الأقوى على وجهِ الأرضِ.

عاطفـةُ الأمومة تجعلُ الأمَّ تفعَلُ المسـتحيل منْ أجل أبنائها، حتـى إنْ كلَّفها الأمرُ حياتَها، فقدْ كانَ هناك احتمالٌ كبيرٌ ألا تنجوَ أمُّ موسـى بفَعْلَتِها، ومع ذلك لم تتَرَدَّدْ هنيهةً في فِعْلِها، وذلك لأنَّ الأمومةَ والأنانيةَ لا تَجتمعانِ في وقتٍ واحدٍ، ولا في موقفٍ واحدٍ، ولا معَ شخصٍ واحدٍ، فالمرأةُ قد تكونُ أنانيةً مع جميعِ البشرِ، إلا معَ أبنائها، وذلكَ لأنها ليسـتْ أمّـًا إلا لأبنائها، أي أنَّ أمومَتَها لا تحضُرُ إلا مع أبنائها، بينما تغيبُ عند تعامُلِها مع باقي البشَرِ.

وهنـاك أيضـًا قوةُ الإيمـانِ التي جعلَتْ أُمَّ موسـى أكثرَ ثباتـًا، فقدْ وعدَها اللهُ أنه سيعيدُ موسى إليها، وسيجعَلُه من المرسلين.

أغلَبُنا يميل إلى الانتقامِ من الظالِم، متناسين أنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو المنتقمُ الجبَّارُ، وأنهُ وعدَنا بعِزَّتِه وجلالِه أنهُ سينصُرُ المظلومَ ولـو بعدَ حينٍ، لو كان يقينُنا بالله كيَقِينِ أمِّ موسـى لما انتْقَمَنا مِن أحدٍ، ولكُنَّا سَـلَّمْنا أمورَنا بالكاملِ لـربِّ العالمين وقلوبُنا مِلئُها الإيمانُ واليقينُ بعَدْلِ اللهِ في كونه.

أمُّ موسـى كانـتْ أمـامَ خيـارٍ تعتـبرُهُ كلُّ الأمهاتِ مسـتحيلَ

التنفيـذِ، ولكنَّ قوةَ الإيمانِ وحُسـنَ الظنِّ باللهِ، بل اليقينَ الكاملَ بوعْـدِ الله، جعَلَهـا تقطعُ المجـالَ لأي لحظةٍ تـردُّد، وتُقدِمُ على تلـك الخطوةِ التي تَخطَـفُ الأنفاسَ، ولكنَّ الأمَّ تبقـى أمًّا؛ فقدْ كانـت على وَشْـكِ أن تصرِّحَ أنَّهُ ابنُها لولا رحمـةُ اللهِ الذي ربطَ علـى قلْبِهـا ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: 10]. أمُّ موسـى أظهرَتْ حُسـنَ الظنِّ بالله عندما أرضعتْ موسـى، وألقَتْه في اليمِّ كمـا أمرَها الله، فكافأَها اللهُ بقلْبٍ راضٍ مطمئِنٍّ، وفي هذا موعظةٌ لمَنْ أرادَ راحةَ البال.

ولكـنَّ دورَ أمِّ موسـى لـمْ يَنْتَـهِ هنا، بـل اسـتمرَّتْ في الأخْذِ بالأسبابِ حتى آخرِ لحظةٍ: إلى أنْ عادَ إليها وليدُها.

المزيدُ حولَ هذه الجزئيَّةِ في السطورِ القادمةِ.

والآنَ وبعدَ كلِّ ما عرفناه عن أمِّ موسـى: حاولْ أنْ تفكِّرَ فيها على أنَّها «مجرَّدُ شيءٍ!»، وإن استطعتَ أنْ تُقْنِعَ نفسكَ أنها مجردُ شيءٍ فِعلاً، فلا تتابعِ القراءةَ؛ لأنَّ هذا الكتابَ ليس لأمثالِك!

ولا تقِلُّ أختُ موسـى عن أمِّها قوةً وجسارةً، فلمْ تتردَّدْ لحظةً عندما طَلَبَتْ منها والدتِها أنْ تلحَقَ بموسـى بعدَ أنْ ألقَتْهُ في اليَمِّ؛ لترى أينَ يستقرُّ به الحالُ، كما طلبَتْ منها أمُّها أن تكونَ حذرةً في

ذلك، وأنْ تلحقَ به عن جُنُبٍ، أي دونَ أن يَشْعُرَ بها أحدٌ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 11]، ولكنْ لماذا طلبتْ أمُّ موسى من ابنتِها أنْ تلحَقَ بموسى؟ ألم تتلقَّ وعداً من اللهِ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأن يعيدَه إليها؟ كانَ بإمكانها أن تضعَ ابنَها في اليمِّ كما أمرَها اللهُ تعالى، ثم تعودُ أدراجَها إلي البيتِ، وتنتظرَ حتى يعيدَ اللهُ موسى لها كما وعدَها، لكنَّها لمْ تفعَلْ؛ لأنَّ حُسنَ الظنِّ يكونُ في القلبِ فقط، أمَّا الجوارحُ فتسعى وتتحرَّكُ، وتبذلُ الجهودَ نحوَ الوصولِ للهدفِ. هذه هي أمُّ موسى: سيدةٌ قويّةٌ تمكَّنَتْ من الوصولِ إلى نقطةِ التوازنِ بينَ القلبِ المؤمنِ المتوكِّلِ وبينَ الجوارحِ القويَّةِ التي تأخذُ بالأسبابِ، وبعدَ كلِّ هذا يأتي مَن يقولُ عنها: إِنَّها «مجردُ شيءٍ!».

أختُ موسى كانت عندها الجرأةُ أنْ تدخلَ إلى قصرِ فرعونَ، وتدلَّهم على والدتِها؛ لكي تُرضِعَه:

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: 40].

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾

[القصص: 12].

حقاً إنَّها ابنةُ والدتِها؛ فهذه الأختُ كانتْ تحمِلُ مسئوليةَ الأختِ الكبرى التي يعتبِرُها الجميعُ الأمَّ الثانيةَ لإخوتِها، فقدْ

أمرَتْهـا والدتُها أن تتَبَّعَ موسـى، ولكنَّها لـم تأمُرْها أنْ تَدْخُلَ إلى داخلِ قصْـرِ فرعونَ، وتدلَّهم على بَيْتِها، الأخـتُ فَعَلَتْ هذا مِنْ تِلقاءِ نَفْسِها بدافعٍ من الإحساسِ بالمسئوليَّةِ تجاهَ أخيها الرضيعِ، هذا الإحسـاسُ كان كافياً لأنْ يُمِدَّها بالقـوةِ والثباتِ، ويجعلَها تتجرأُ وتُقدِمُ على هذا التصـرُّفِ. وكانتْ نتيجةُ هذا التصرُّفِ أنْ أعـادَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موسـى إلـى حِضْنِ والدتِـه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [القصص: 13]. وهـذا أمـرٌ طبيعيٌّ، فمَن يُخْلِـصْ في عملـه ويتفانى فيـه يُكافئُه اللهُ سـبحانه بالوصولِ إلى مبتغـاه ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ [النجم: 39- 41]. وهذا نموذجٌ آخرُ للمرأة التي يراها ذلك المحامي المتعلِّمُ حاملُ الشهادةِ الجامعيَّةِ «مجردَ شيءٍ!».

ونأتي الآن إلى السـيدةِ آسـيا امـرأةِ فرعونَ، هي سـيدةٌ مؤمنةٌ صابـرةٌ تحمَّلَتْ ظُلْمَ زوجِهـا وطُغيانَه، فقـدْ وَرَدَ في بعضِ كُتُبِ التَّاريـخِ أنَّ فرعـونَ كانَ يُعذِّبُها، ويُسـيءُ مُعاملتَها، وحتى إنْ لم يكـنْ هناكَ إثباتٌ علـى صِحَّةِ هذا الكلامِ، فهوَ أمرٌ غيرُ مسـتبعَدٍ بالنَّظَـرِ إلى حُكْمِه الطاغي المسـتبدِّ والجائرِ على بني إسـرائيلَ. بالرَّغم من كلِّ جَبروته وطغيانِه، فقدْ أنزلَ اللهُ سبحانه على السيدةِ آسـيا القوةَ والشـجاعةَ لكي تطلُبَ منه أنْ تقومَ بتربيةِ موسـى في القَصْـرِ ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن

﴿يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: 9]. سبحانَ الذي سخّر الأسبابَ للنبيِّ موسى، ولم يرزقْ آسيا بالذريَّةِ حتى يتعلَّقَ قلبُها بموسى، وتَطلُبَ منْ فرعونَ أنْ تربِّيَه، ولولا هذه المحبةُ التي نزلَتْ على قلبِها لأمرَ فرعونُ بقَتْلِ موسى، لكنَّه اللهُ الذي يدبِّر الأمرَ لعبادِه، هو مَن جعلَ قلوبَ الناس تحبُّ النبيَّ موسى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: 39].

أطلبُ منَ القارئِ أن يتخيَّلَ أنَّ امرأةً في عصرنا الحالي تملِكُ الجرأةَ لتطلبَ مِن زَوْجِها الطاغيةَ الظالمَ الجائرَ الذي يعذِّبُها ويقهرُها أن تتبنَّى طفلاً وتُربِّيه. السيدةُ آسيا القويَّةُ كانت جندياً آخرَ من جنودِ اللهِ سبحانه سخَّرَها لحمايةِ النبيِّ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من أجلِ توفير مأوىً آمنٍ له حتى يبلُغَ أشُدَّهُ، فعلاً ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: 173]. وهذه قصةُ «مجرَّد شيء» أُخرى في حياةِ النبيِّ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

ويصلُ بنا الحديثُ الآن إلى آخرِ سيدةٍ في حياة النبيِّ موسى، وهي زوجتُه، كلُّنا نعلمُ قصَّةَ النبيِّ موسى معَ بناتِ الرجلِ الصالح في مدْيَنَ، فالنبيُّ موسى سقَى لهما، ثم تولَّى إلى الظِّلِّ؛ كانَ هذا التصرُّف مفتاحَ الفرجِ له، فقدْ تحصَّلَ على زوجةٍ، ووظيفةٍ، واستقرارٍ، وكلُّ هذه الأمورُ هيَّأَتْه لحَمْلِ الرسالةِ.

إحدى الفتاتيْن أعجَبَتْها أخلاقُ النبيِّ موسى الذي سقى الماءَ، ثـم تولَّى مباشـرةً غير مسـتأنسٍ لحديـثٍ. أرادتْ هـذه الفتاةُ أن تَلفِـتَ نظَرَ والدِها إلى ذلك ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 26]. سبحانَ الذي جعلَ هذه الفتاةَ سبباً لكي يجدَ النبيُّ موسى الأمْنَ والأمانَ والاستقرارَ بعدَ أنْ كانَ هاربـاً يترقَّبُ جيشَ فرعـونَ المتربِّصَ به. وقد لقيَ طلبُ الابنةِ تجاوبـاً من الأبِ الصديقِ الذي فهِمَ مشاعرَ ابنتِه، وعلِمَ أنَّ النبيَّ موسى يُعجِبُها، فقامَ بتزويجهما ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ [القصص: 27]. وهذه قصةُ رابعِ «الأشياء» في حياةِ النبيِّ موسى!

والآنَ سـؤالٌ للتأملِ: ماذا كانَ مصيرُ النبيِّ موسـى لو خافَتْ عليـه أمُّه ولم تُلْقِـه في اليمِّ كما أمرَهـا اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟ وفي حالِ نفَّذَتِ الأمـرَ ماذا كان مصيرُه إنْ خافتْ أختُه ورفضتْ أنْ تدخلَ قَصْـرَ فرعـونَ لِتَدُلَّهـم على بيتِها حتـى يعيدوا موسـى لوالدتِه؟ ومـاذا كانَ مصيرُه إنْ خافتِ امـرأةُ فرعونَ مِن زوجِها ولم تتجرأْ أنْ تطلـبَ منـه أنْ تربِّـيَ الرضيعَ موسـى؟ ومـاذا كانَ مصيرُه لو خافتِ ابنةُ الرجلِ الصالحِ من والدِها ولمْ تطلُبْ منه أنْ يسـتأجِرَ النبيَّ موسـى لخدمتِهم؟ ودعوني أجمعُ كلَّ هذه التسـاؤلاتِ في سـؤالٍ واحدٍ، ماذا لو لم يَكنْ هناك نسـاءٌ في حياةِ النبيِّ موسـى؟

مـاذا كانَ مصيرُه؟ وماذا كانَ سـيؤولُ إليه حالُـه لو لم يكن عنده «مجرد شيء!» في حياتِه؟

وخذْ سـؤالاً آخـرَ وحـاولْ أنْ تجيبَ عنـه أثنـاءَ محاولاتك للإجابـة عن الأسـئلةِ أعلاه: مـاذا كانَ مصيرُ الرسـالةِ لو خافتِ السـيدةُ خديجـةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا مـن قصَّة المَلَـك الذي جاءَ للرسـولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في غـارِ حِـراء، وجعلَـه يهـرَعُ إلى البيـت خائفـًا يرتعِـدُ؟ لاحظْ أنَّ سـيِّدَ الخلْـقِ هرعَ إلى زوجتِه، ولـمْ يهرعْ إلى صديقِ عمرِه أبي بكر الصِّدِّيقِ الصدوقِ، ولا إلى عمِّه أبي طالب. أعانتِ السـيدة خديجةُ الرسـولَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكانت كالجبلِ الصامـدِ تَدْعَمُـه بالكلامِ الطيِّب، وتعينُه على الأخذِ بالأسـباب، ولك أنْ تتخيَّلَ مصيرَ الدعوة إنْ لم يكن هذا موقفَ التي وصَفَها ذلك المحامي المدافعُ عن الحقوقِ بأنها «مجردُ شيءٍ!»؟

هؤلاءِ هنَّ البناتُ «بشـائرُ» كما قـالَ عنهن اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في القرآنِ الكريمِ، وكما قالَ الشاعِرُ:

إنَّ الْبُيُـوتَ إِذَا الْبَنَـاتُ نَزَلْنَهـا ... مِثْلُ السَّـمَاءِ إِذَا تَزَيَّنَـتْ بِنُجُومِهَا

هُـنَّ الْحَيَاةُ إِذَا الشُّـرُورُ تَلَاطَمَتْ ... وَإِلَـى الْفُـؤَادِ تَسَـلَّلَتْ بِهُمُومِهَـا

ولا داعـيَ لأنْ تذهبـوا بعيـداً إلى قصصِ غيرِكـم، بإمكانكم سـؤالُ أنفسِـكُم مـاذا كان سـيكونُ حالكُـم دونَ أمهاتِكـم أو

أخواتِكـم أو زوجاتِكـم؟ هناكَ حقيقةٌ معروفـةٌ للجميع وهيَ أنَّ الذَّكَرَ لا يسـتطيعُ أنْ يعيـشَ بدونِ المرأةِ، ومـا يفعلُه عند نُكرانِ هذا الأمرِ هو أنَّه يجعلُ منْ نفسهِ مُكابِراً يكذبُ على نفسِه فقط.

بمعنـىً آخـرَ: أنتَ أيُّهـا المحامي لا تسـتطيعُ أنْ تعيشَ بدون ذلك «الشـيء»! ومهمـا حاولتَ وعافـرْتَ وكابـرْتَ، وأنكرْتَ فسـينتهي بك المطافُ بأنْ تكـونَ أضحوكةَ الجميـع! يا لكَ منْ مسكينٍ يا خِرِّيجَ القانون!

وأختـمُ الحديثَ عن الموضوع بهذا الكلامِ الذي وجدتُه عندَ تصفحي لصفحاتِ التواصل الاجتماعيِّ:

«البُخَـارِيُّ ربَّتْهُ أُمُّه، الشَّـافِعِيُّ ربَّتْهُ أمُّهُ، أَحْمَدُ بْـنُ حَنْبَلٍ رَبَّتْهُ أمُّهُ، مُحمَّدٌ الفاتِـحُ ربَّتْهُ أمُّه؛ لِيَكُونَ فاتِحَ القُسْـطَنْطِينِيَّةِ، الحافظُ ابنُ حَجَـرٍ ربَّتْه أُخْتُه، وابنُ تَيْمِيَّةَ كانت أمُّـه تُدعى تيميَّة، وكانتْ واعظـةً، فنُسِـب لها وعُـرِف بها، «النِّسَـاءُ مَصَانِـعُ الرِّجَـالِ، إِذَا صَلَحَتِ الْمَرْأَةُ صَلَحَ الْبَيْتُ وَالْمُجْتَمَعُ» لقائله.



الحديثُ التاسِعُ يُعلِّمُنا يوسُفُ

ما انفكَّتْ قصةُ النبيِّ يوسفَ تعلِّمُنا الدروسَ والعِبَرَ والمواعظَ، أنا قرأتُ العديدَ من المقالاتِ التي تُحلِّلُ قصةَ النبيِّ يوسفَ الغنيَّة بالدروسِ المستفادةِ، ولكنْ هناك ثلاثُ دروسٍ اسْتَشْفَفْتُها مِن القصَّة لم يتداولْها أحدٌ، أو على حدِّ علمي على الأقلِّ، هذه الدروسُ استخلصْتُها من ثلاثةِ أمورٍ: قميصُ يوسُفَ، يوسفُ وصاحبُ السجنِ، وبراءةُ يوسف واتِّهامُ أخيهِ.



ولنبدأْ بالقَمِيصِ

قميصُ يوسفَ (لَا تَدَعْ غَيْرَكَ يَسْتَخْدِمُكَ)

رمزيَّةُ قميصِ يوسفَ مُهمَّةٌ جداً في القصَّة، فهي تَكشِفُ لنا نتيجةَ أنْ يكونَ للإنسانِ تلكَ العقليَّةُ السلبيَّةُ المنصاعةُ لغيرها التي يتحكَّمُ الآخرون بها، ويجرِّدونَ صاحبَها مِن كَيانِه وخصوصيَّتِه. البدايةُ كانتْ عند تآمُرِ إخوةِ يوسفَ عليه، وإلقائِه في الجُبِّ، ثم جاؤوا أباهم بقميصِ يوسفَ وعليه دَمٌ كَذِبٌ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف: 18]، ادَّعى الإخوةُ أنَّ الذئبَ أكلَ يوسفَ حتى يتخلصوا منه؛ فعَلُوا ذلك عنْ طريقِ استخدامِ قميصِه، نتيجةٌ سلبيةٌ متوقعةٌ لأنَّ صاحبَ القميصِ لم يستخدمْه، بلِ استخدمَهُ غيرُهُ.

ونتيجـةٌ مشـابهةٌ حصلَـتْ عندمـا قدَّتِ امـرأةُ العزيـزِ قميصَ يوسـفَ لكي تتهمَه أنَّه هو مَن راودَها عن نفسِـها، وأرادَ بها سوءاً ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: 25]، وانتهى الأمْرُ بأنْ تمَّ سجنُه ظُلمـاً وبهتانـاً بسببِ القميصِ الذي قدّته امرأةُ العزيزِ عندما هرعَ النبيُّ يوسـفُ إلى البـابِ هرباً منها، ورغمَ أنه تَمَّ تَبْرِئَتُهُ من هذهِ التهمةِ لأنَّ قميصَه قُدَّ مِن دُبُرٍ وليسَ من قُبُلٍ، إلا أنهم سجَنوه بِضْعَ سنينَ:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾

[يوسف: 26- 28].

مرةً أخرى يتعرَّضُ النبيُّ يوسفُ للأذى لأنَّ هناك مَن استخدمَ قميصَه نيابةً عنه لكي يؤذيَه.

ولكنَّ الوضـعَ تغيَّر، وانقلبَتِ الموازينُ عندما اسـتخدمَ النبيُّ يوسـفُ قميصَه بنفسِـه، هذهِ المرَّةُ كانتِ النتيجـةُ إيجابيَّةً، وجاءَ معهـا الفرَجُ، فقدْ طلبَ من إخوتِه أنْ يلقوا بقميصِهِ على وجه أبيه الضريرِ لكيْ يرجعَ إليهِ بصرُهُ ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [يوسف: 93].

فكانـتِ النتيجة أنْ عـادَ بصَرُ النبيِّ يعقـوبَ إليه ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ [يوسف: 96]، وتـابَ إخـوةُ يوسـفَ عـن خَطَئِهـم، وذهبـوا جميعُهم إلى مِصْـرَ لِلقـاءِ النَّبيِّ يوسـفَ، والْتـأَمَ شَـمْلُ العائلـةِ من جديـدٍ، وعادَ الفـرحُ إليهم، وذهبَ عنهم الحُزْنُ.

الشـاهِدُ من قِصَّةِ قميصِ يوسفَ أنه مَن يُريدُ أنْ يحظى بنتائج إيجابيَّـةٍ عليه باسـتخدام مصادرِه بنفسِـه، وألَّا يَـدَعَ مُقَدَّراتِه بيَدِ غيـرِه؛ لأنَّ هـذا التصـرُّفَ قد يأتي بنتائـجِ لا تُحمـد عُقباها، وقدْ يدفعُ الشخصُ ثمنـًا باهظـًا لذلك، لا تدعْ غيرَك يقررُ عنك مصيرَ حياتِك، فأنتَ وحدَك الخاسـرُ في كل مرَّةٍ، وهـم لنْ يطولَهم أيُّ أذىً.

لا تَسْمَحي لأحدٍ أنْ يُقْنِعَكِ بالزواجِ مِن شخصٍ ما عن طريقِ الاستمرار في الإلحاحِ عليك طوالَ الوقتِ، وعدمِ تركِكِ لتتخذي القرارَ بنفسـك؛ لأنَّهم لن يتوقفوا عن الإلحاحِ حتى توافقي على الزواجِ تحتَ هذا الضغطِ الأُسري المُرهق، فبَعْدَ الزواجِ يختفي المُلِحِّين فجأةً، وتجدينَ نفسـكِ وحيدةً أمام اختيارِك، أو بمعنى أصـحَّ أمـامَ اختيارِهم، وسـتبقيْنَ قيْدَ هذا الاختيـارِ جيداً كان أو سيئًا إلى آخرِ العمرِ.

والكلامُ نفسه موجَّهٌ إلى السيدةِ التي تطلُبُ الطَّلَاقَ لأنَّها ضاقتْ ذرعًا من حياةِ الذُّلِّ والمهانة والمشاكِلِ. لا يتوقفُ الأقاربُ، والذين أغلبُهم من النساء للأسفِ، عن محاولاتهم المتكرِّرَةِ لإقناعها بالعُدولِ عن قرارِها. سيِّدَتِي هم لم يعيشوا مُعاناتِك، فلا تَسْمحي لهم أنْ يقرِّرُوا عنك حَياتَك؛ كما أنَّك لستِ مضطرَّةً لأنْ تُقدِّمي أي تَبريراتٍ عن قرارِك، وهم ليسَ مِن حقِّهم أنْ يسألوا عن الأسبابِ، وحتى إنْ علموا بأسبابِك فأنتِ لستِ مجبرةً على إقناعهم بها؛ فاقتناعُهم من عَدمِه سيّان؛ لأنَّ رأيَهم لا يغيِّرُ من الأمرِ شيئًا فرأيُك وحدَك هو ما يُهِمُّ، ولله الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ. هي حياتُكِ وليست حياتَهم تمامًا كما كانَ قميصُ النبيِّ يوسُفَ له، ولم يَكُنْ لإِخْوَتِه ولا لامرأةِ العزيزِ.

وينطبِقُ الأمرُ على الابنِ والابنةِ الذين يُجبرُهم والديهم على دراسةِ تخصُّصٍ لا يريدونَه، وهنا أُوَجِّهُ الكلامَ إلى كلِّ أمٍّ وكلِّ أبٍ: التربيةُ لا تعني إلغاءَ شخصيةِ ابنِكم وتشكيلَهُ بالطريقة التي تريدونَها، فهذه ليست تربيةً، بل استبداداً وطغيانًا، ابنُك له كيانٌ مستقلٌّ بذاتِه، ومن حقِّه أن يختارَ طريقه في هذه الحياة، وظيفتُك كأبٍ هي النُّصح والإرشاد، وتوضيحُ النقاطِ السلبيةِ والإيجابيةِ في الخياراتِ المطروحةِ لابنك، ومِن ثَم تركُه ليختارَ، وحتى إنْ أساءَ الاختيارَ، فهذه فرصةٌ له لكي يتعلَّم منْ خطئِه، فهوَ إنسانٌ

وليسَ آلةً، فلا تفرضوا عليه أنْ يعيشَ حياتَه دونَ أن يخطئَ، بل تَقبَّلوا أخطاءَه كما تتقبلون أخطاءَكم، فكلُّها دروسٌ في النهاية، وتذكَّروا أنَّ ابنكم يعيشُ في زمنٍ غيرِ زمنِكُم، وبطبيعةِ الحالِ هذا الأمرُ يتطلَّبُ منه توجُّهاتٍ واختياراتٍ غيرَ التي كانت متاحةً لكم. وهنا أتذكَّرُ المقولةَ التاليةَ: «لَا تُرَبُّوا أَبْنَاءَكُمْ كَمَا رَبَّاكُمْ آبَاؤُكُمْ، فَقَدْ خُلِقُوا لِزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ»، البعضُ ينسبُ هذه المقولةَ إلى الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبعضُ الآخر ينسبُها للفاروقِ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنا لستُ بصدد إثباتِ سَنَدِ المقولَةِ، وإنَّما قصدْتُ ما اشتملَتْ عليه مِن معنىً يُفيدُ في الجانبِ المقصودِ من التربيَةِ مما يَتعلَّقُ بِالاختياراتِ الدُّنيويَّةِ التي تَتغيَّرُ من زمانٍ لآخَرَ.

خُلاصةُ القَوْلِ: دَعِ ابنَك يتصرَّفُ في قميصِه بالطريقة التي تناسِبُه هو، لا بالطريقةِ التي تناسِبُك أنتَ ومجتمعَك.

يُوسفُ وصاحِبَا السِّجْنِ (حضارَةُ الأخْلاقِ)

قرأتُ بعضَ التفسيراتِ حولَ قصةِ النبيِّ يوسفَ معَ صاحِبَيِ السِّجْنِ، وكلُّها كانت تدورُ حولَ قدرَتِه على تفسيرِ الأحلامِ، ولكنَّ هناكَ أمراً لا أدري إنْ تنبَّه إليهِ أحدٌ، وهو أنَّ السجينَ الذي نجا من القِصاصِ وخرجَ من السجنِ تحصَّل على وظيفةٍ

في القصرِ، بل أصبحَ ضِمْنَ حاشيةِ الملكِ، ونعلمُ هذا عندما أخبرَ الملكُ حاشيتَه عن الرؤيا التي رآها في المنام، وطلَبَ تفسيراً لها، فتَذَكَّرَ هذا السجينُ السابقُ يوسفَ على الفورِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: 45- 46]. لا يُمكِنُ أنْ يكونَ الملكُ قدْ أخبرَ شعبَه بأكملِه عن الرؤيا، وهنا يتَّضِحُ لنا أنَّ السجينَ السابقَ كان مُقرَّباً جداً مِن الملِك، ونفَهمُ ذلك من كلامِ الملِك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43]. الملكُ سألَ «الملأَ» مِن حولِه، وكان السجينُ السابقُ ضمنَهم، دعونا نُحاكي هذه القصةِ مع واقعنا الحالي: صاحبُ سوابقَ يتحصَّلُ على وظيفةٍ في القصرِ الرئاسيِّ، ويتواصلُ مع رئيسِ الدولةِ، ويتناقشُ معه حول تفسيرِ أحلامِه، بل ويتكفَّل بالأمرِ ويُحْضِرُ تفسيراً للحُلم! لابد أنَّ ابتسامةً عريضةً ملؤها التَّهكُّم ارتسمتْ على وجهِ القارئِ الآن، هذا إنْ لم يضحَكْ ملءَ أشداقِه وهو يتخيَّلُ الأمرَ! قد يكونُ هذا الأمرُ حصلَ بالفِعْلِ، ولكنَّ هذهِ الحالةَ هي مِن الاستثناءات النادرةِ التي لا تُعمَّمُ، والتي تحصُلُ في بعضِ الشعوبِ وليس كلها.

ليسَ هذا فحسب، بل إنَّ النبيَّ يوسفَ نفسَه عندما خرجَ منَ السجنِ طلبَ أن يتقلَّدَ مَنْصِبَ العزيزِ ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ

إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ [يوسف: 55- 56]. (خـارِجٌ مِن سِـجْنٍ) أصبحَ وزيـرَ الاقتصادِ في الدولة! وآخرُ عملَ في حاشيةِ الملكِ! ماذا نَتعلَّمُ مِن كلِّ هذا؟

نَتعلَّـمُ أنَّ الحضارةَ الحقيقيَّةَ هي حضارةُ الأخلاقِ، وليسـتْ حضارةَ النهضَـةِ الصناعيَّـةِ والكمبيوتر والعمرانِ، الشـعوبُ في عصْـرِ النبيِّ يوسـفَ لم تكنْ تعيش الحضـارةَ الصناعيةَ والتطورَ في التكنولوجيـا، ولكنهـا كانت تشـهدُ نهضةً في الأخـلاقِ يفتقرُ إليهـا عصرُنا الحالي، فنحنُ اليومَ نعيشُ في زمنٍ يصعبُ فيه على صاحبِ السـوابق الحصـولُ على فُرَصٍ طبيعيَّةٍ كغيـره منْ أفرادِ المجتمـعِ، حتى إنْ كانَ بريئًا مثلَ النبيِّ يوسُـفَ، أو عُوقِبَ على جُرمه مثل الذي عمِلَ في حاشية الملك.

المجتمعاتُ لا ترحمُ الأفرادَ، ولا تنسى أخطاءَهم، ولا تَرحَمُ زلَّاتِهم، أمَّا ربُّ السموات والأرضِ يقبَلُ التوبةَ عن عباده، ولكنَّ البشَرَ لا يُسامحونَ، ولا يَنْسَـوْنَ، ولا يُعطونَ فُرَصـًا ثانيةً؛ لذلك لا عَجَـبَ عندما نرى أصحابَ السـوابقِ يسـتمرُّونَ في انحرافِهم وغيِّهم، فقد أدركوا أنْ لا فائدةَ من الاسـتقامةِ والتوبةِ والالتزامِ، هـذهِ المجتمعاتُ هي التي دمَّرت نفسَـها مـن الداخلِ، ونخَرَتْ بُنيانَها مثلَ السـوسِ بهذه العقليَّة المتخلفَةِ الرجعيَّةِ التي أعدمتْ

عُنْصُرَ الأخلاقِ، وجعلتْ من المادةِ الأساسَ في كلِّ شيءٍ، وأصبحَ البشَرُ كالآلاتِ لا وجودَ لدفءِ المشاعِرِ، ولا حتى الإحساسِ بالإنسانيَّةِ.

يبدو أنَّ التاريخ يُقرَأُ بالمعكوس، وأنَّ المجتمعاتِ المتحضرةَ هي تلك التي عاشتْ في الماضي، وكلَّما تقدَّمَ الإنسانُ في الصناعةِ انحدرَ أخلاقيًا، وتقلَّصَتِ المشاعرُ الإنسانيَّةُ حتى قاربتْ أنْ تصلَ إلى العدَمِ إنْ لم تكنْ قدْ وصَلَتْ إليه منذُ زمنٍ.

تَبْرِئَةُ يُوسُفَ واتِّهامُ أخِيه (لا تَسْكُتْ عَنْ حَقِّكَ).

عندما أمرَ الملكُ أنْ يأتوهُ بيوسفَ من السجنِ كانَ من المتوقَّعِ أنْ يوافقَ النبيُّ يوسفُ على الفورِ؛ لأنَّها كانتْ فرصتَهُ ليغادِرَ السجنِ، ولكنَّه لم يفعَلْ، وأصرَّ أنْ تَظْهَرَ بَراءَتُهُ أوَّلاً ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]. وعندما استفسرَ الملكُ عن الأمر، أو حسبَ تعابير عصرنا: عندما فتحَ تحقيقًا في الموضوع، ظهرَتْ الحقيقةُ، واعترفَتِ النسوةُ، واعترفتِ امرأةُ العزيزِ بذَنْبِها ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]. لو أنَّ النبيَّ

يوسفَ اكتفى بالخروجِ من السجنِ لما ظهرتْ براءَتُه، ولظنَّ الجميعُ أنَّه مذنبٌ، وأيُّ ذنبٍ كانَ! لذلكَ كانَ لزاماً عليه أن يُثبِتَ براءتَه التي كانت أهمَّ من خُروجه من السجْنِ.

ونلاحظُ موقفاً مشابهاً قامَ به النبيُّ يوسفُ عندما جاءَ إخوتُه بالبضاعةِ فعرَّفَهم ولم يَعرفُوه، كانَ بإمكانه أنْ يُعرِّفهم بنفسِه، ويطلُبُ منهم أنْ يُحضروا لهُ والِدَهُ، لكنَّه بدلاً عن ذلك قامَ بوضْعِ صواعِ الملكِ في متاعِ أخيهِ؛ لِيَتَّهِمَهُ بالسَّرِقَةِ، ويَحْتَجِزَهُ عندَه، ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: 70]، بل إنَّه لَمْ يَعْدِلْ عَنْ مَوْقِفِهِ حتى عندما أَخْبَرَهُ إخوَتُه أنْ يَأخُذَ أحدَهم لأنَّ له أباً شيخاً كبيراً، وقدْ لا يَحْتَمِلُ هذا الأمرَ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: 78- 79].

لماذا قامَ بذلك؟ ألَمْ يقلْ بأنَّه سامَحَهم؟ إنَّهُ الثباتُ في المواقفِ والإصرارُ على إظهارِ الحَقِّ، أرادَ أنْ يُثبتَ أنَّهم هم مَن ألقَوْهُ في الجبِّ، وأنَّ الذِّئْبَ لم يأكلْهُ، لقدْ كانَ على علمٍ بكلِّ هذا، ووالِدُه كذلكَ يعلَمُ، ولكنَّه أرادَ أنْ يعترفَ إخوتُه بفعلَتِهم لتَتَحَقَّقَ تَوْبَتُهُمْ، ولِيَعْلَمُوا أنَّه لا بُدَّ للحَقِّ أنْ يظهرَ يوماً إنْ طالَ الزمانُ أو قَصُرَ.

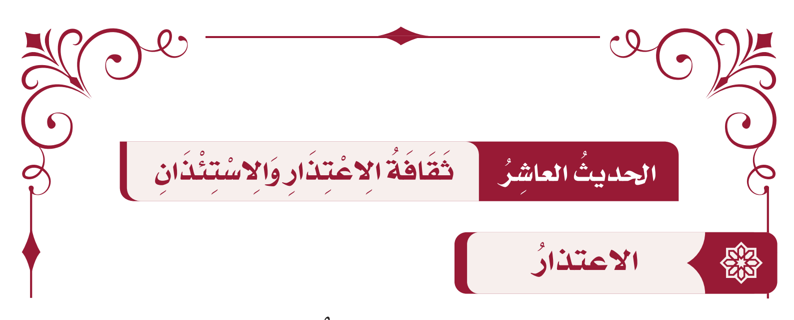
أنا لا أقولُ لا تُسامحْ، بلْ سامحْ واصفَحْ، ولكنِ اصدعْ بالحقِّ، فالسماحُ لا يعني أنْ تتركَ حقَّكَ يضيعُ. لا تسكتْ عن حقِّك، اسعَ بكلِّ الطُّرُقِ أنْ تُظهرَه، وحتى إنْ لم يُصَدِّقْكَ أحدٌ، فيكفي أنَّك أخذتَ بالأسبابِ، أنت قُمْ بواجبِكَ، واتركِ الأمرَ كلَّه لله، فله وحدَه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

أمَّا السكوتُ والرضوخُ وعدمُ تحريكِ ساكنٍ، فهذا هو التواكلُ بعينِه، أنتَ واجبُكَ أن تأخذَ بالأسبابِ، أما النتائجُ، فهي من عندِ اللهِ وحدَه، وتأكَّد بأنَّ إخلاصَ النيَّةِ إلى الله مصيرُه الفرجُ والفتحُ المبينُ بإذن اللهِ.

الحمدُ للهِ على نعمةِ القُرآنِ، فهو يَعُجُّ بالقَصصِ والعِبَرِ والحِكم والمواعظِ، وكلَّما قرأنا السورَ والآياتِ اكتشفْنا الجديدَ من الحقائق، وهذه هي معجزةُ القرآنِ الذي اتخذَه كثيرونُ مهجوراً مع الأسفِ.

نَسْألُ اللهَ أن يجعلَنا ممن يقيمونَ حروفَ القرآنِ وحُدودَهُ، ونَعوذُ به من أن نكونَ ممَّن يُقيمونَ حُروفَه دون حُدودِهِ.





الاعتذارُ

أغلبُ المجتمعاتِ الإسلاميةِ تعيشُ عقليةَ الصوْتِ الواحدِ الذي يرفضُ تقبُّل الرأيِ الآخَرِ، لسانُ حالِ الفرْدِ: أنا على صوابٍ دائمـًا، ومَن يختلفُ معي فهو ضِدِّي، وهو على خطأٍ، وخاصةً أصحابَ السُلطةِ والنفوذِ، فهم يؤمنون إيمانـًا عميقـًا راسخـًا أنه مِن المباح لهم أن يُخطئوا في حقِّ مَن هم تحتَ سُلطتِهم دونَ الاعتذارِ لهم، وعلى المظلومين أنْ يتقبَّلوا الأمرَ على كرامَتِهم، ويتصرَّفوا بشكل طبيعيٍّ دون اعتراضٍ! طبعـًا فصاحبُ السُّلطة في هذه المجتمعاتِ له مطلقُ الحريَّةِ في التصرُّفِ كيفما يشاءُ، ولا يحقُّ لأحدٍ أن يحاسبَه أو يلومَه، يريدُ أنْ يتعاملَ مع الجميعِ حسبَ مزاجاته: يغضبُ عليهم متى يشاءُ، ويصالِحُهم متى يشاءُ، وإذا نعتَهم بألفاظٍ نابيةٍ عليهم أنْ يتقبَّلوا الأمرَ، ويلتمسوا له الأعذارَ؛ لأنَّه في حالةِ غضبٍ، وعندما يزولُ غضبُه يجبُ عليهم أنْ يتعاملوا معه كأنَّ شيئـًا لم يكُنْ! كيفَ نقنعُ شخصـًا بهذهِ العقليَّةِ أنْ يعترفَ بخطئه، وأنْ يعتذِرَ عليه؟!

الاعتذارُ هو أحدُ الفضائل التي قاربتْ على الانقراضِ بشكلٍ نهائيٍّ من مجتمعاتنا وحياتِنا، والسببُ الرئيسُ أنَّ أغلَبَ الناسِ

ينظـرونَ إليه أنَّه انهزامٌ وانكسـارٌ ومذلَّةٌ وجَـرْحٌ للكرامَةِ، وحتى إذا اعتـذرَ أحـدٌ على خطئه، فإنَّه لا يلقى الإشـادةَ بهذا التصرُّف، بـل يجدُ مَن يقـولُ: جعلناهُ يعتذِرُ صاغراً على جـذْعِ أنفِهِ! وبهذا يُحجِم الجميعُ عن الاعتذارِ خوفًا من شـعورِ الإذلالِ والتصغيرِ وانتقاصِ الهيبةِ.

مـن ناحيةٍ أخـرى نجـدُ المجتمعاتِ الغربيـةَ يعـزِّزون ثقافةَ الاعتـذارِ خصوصـًا عنـد الأطفـالِ، فعندمـا يعتـذِرُ الطفـلُ في المدرسـةِ يقفُ جميع الطلابِ ويصفِّقون له، الهدفُ هو تربيتُهم على ترسـيخ هذه الفضيلةِ ضمنَ العاداتِ الحميدةِ، أليسـتْ أُمَّةُ الإسلام أولى وأحقُّ بهذا الخُلُق؟

الاعتذارُ صعبٌ لأن الاعترافَ بالخطأِ صعبٌ، بل يكادُ يكون شـبهَ مسـتحيل، فالكلُّ يرونَ أنهم على صـوابٍ دائمـًا، والجميعُ يتفنَّنون في خلْقِ الأعذارِ لكلِّ أفعالهم وأقوالهم حتى لا يعتذروا، ولا يُجـبرُ على الاعتـذارِ إلا الضعيفُ الذي لا يملـكُ من الأمرِ شيئـًا كالابنِ والطالبِ والموظفِ البسيطِ، وأحيانـًا يعتذرونَ عن أخطاءٍ لم يَرتكبُوها، فينتابُهم شعورُ الانكسارِ، وقهرُ الرجالِ عندَ الاعتذارِ.

لماذا كلُّ هذا التعقيد؟ لماذا جعلنا الاعتذارَ أمراً معيبـًا، ودليلَ

هزيمةٍ وإهانةٍ وانكسار؟ ولماذا يتفاخَرُ مَن يجعلُك تعتذرُ ويشعرُ بالانتصار عليك، وكأنَّه مرّغَ وجهك في الوحل! أنا إنسانٌ إذاً أنا أُخطئُ، وبما أني أُخطئُ، فمن الطبيعيِّ أنْ أعتذِرَ، الاعتذارُ لا يُهينُ، بل يزيدُنِي كرامةً وإنسانيةً، لماذا لا نستحي عند ارتكابِ الخطأ، ولكنْ نستحي عند وُجوبِ تقديم الاعتذار عليه؟ بل إنَّ الاعتذارَ لا يكون للغير فقط، فنحنُ نعتذرُ لأنفسنا أيضًا، وقد أقسمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنَّفس اللوامةِ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 2]: هو الإنسانُ الذي يلومُ نفسَه على أخطائه وعثراتِه، ويحاولُ أن يرجعَ للحقِّ في كلِّ مرةٍ يُخطئُ فيها، فيتوبُ ويؤوبُ باستمرار معترفًا بذنبه وتقصيرِه.

النفسُ اللوامةُ تساعدُ الإنسانَ على التصالحِ مع نفسه، وتزرعُ فيه الأملَ من جديدٍ، وتُعطيهِ الفرصةَ لكي يُصحِّحَ مسارَه واختيارَه. أينَ الإهانةُ في هذا؟

ولْنُلْقِ نظرةً سريعةً على صورتيْنِ من صورِ الاعتذارِ في حياة الأنبياءِ، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾ [عبس: 1-2]. ما القصَّةُ؟

يروي الطبريُّ أنَّه جاءَ رجلٌ يُدعى ابنُ أمِّ مكتومٍ إلى الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وكان رجلاً ضريراً لا يُبصر، زارَ هذا الرجلُ الرسولَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في وقتٍ كانَ فيه الرسولُ يدعو بعضَ الرجالِ إلى

الإسلامِ، ظلَّ ابنُ أمِّ مكتومٍ يُلِحُّ على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلبِهِ أنْ يتعلَّم عن الإسلامِ، فعبسَ الرسولُ الكريمُ في وجهِ الأعمى، وانصرفَ عنه؛ ليستمرَّ في الحديث معَ ضيوفِهِ؛ عندها نزلتْ هذه الآياتُ، فأدركَ الرسولُ الكريمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعَلَ، وأقبلَ على الرجل الأعمى، وأصبحَ كلَّما رآه قالَ: «أَهْلاً بِالَّذِي عَاتَبَنِي رَبِّي مِنْ أَجْلِهِ»[1] (الألباني: 635)، كانَ من الممكنِ أنْ يعاتبَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوحيٍ خاصٍّ يبقَى سرّاً، ولكنَّه جعلَ العتابَ في سورةٍ تُتلى إلى يوم القيامةِ، وجعلَها سورةً من قصارِ السورِ السهلة على الكبارِ والصغارِ؛ كي يقرأَها الجميعُ، ويستوعبَها الجميع، ليتعلَّموا حُسْنَ الأخلاقِ من كتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نَبِيِّهم الذي أَثْنَى عليه ربُّه، فقالَ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وفي سورةِ الكهفِ نقرأُ كيفَ أنَّ النبيَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتذرَ للخضرِ عن استعجالِه في محاولةِ التعلُّم منه ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ [الكهف: 73]، لم يتكبَّرِ النبيُّ موسى عنْ الاعتذارِ كونَه نبياً اختارَه اللهُ واصطفاهُ عن سائرِ الخلقِ. لماذا نتكبرُ نحنُ البشرُ العاديُّون ونرفضُ الاعتذارَ؟

(1) سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني (3 /635)، وقال الألباني: «لا أعلم لهذا الحديث أصلا يمكن الاعتماد عليه، وغاية، ما روي في بعض الروايات في «الدر المنثور» أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكرم ابن أم مكتوم إذا دخل عليه».

إنَّ الاعتذارَ يُبعد عنَّا الكِبرَ والغرورَ والخُيلاءَ والتباهيَ، كما أنَّه يحمينا من مرضِ جنونِ العظمةِ، ويعلِّمُنا التواضعَ والتآخيَ والتبسُّطَ في الحياة. الاعتذارُ يجعلُ القلوبَ متوادَّةً متراحمةً متآلفةً متسامحةً، ويَقِيها من الأحقادِ والضغائنِ؛ وأكرِّرُ: الاعتذارُ يُبسِّط الحياةَ؛ ألا تريدونَ التخلُّصَ منَ التعقيدِ في حياتِكم؟ الاعتذارُ يُنمِّي فينا السلامَ الداخليَّ الذي ينعكسُ على ظاهرنا، ويجعلنا دائماً أكثر جمالاً وشباباً ونضارةً؛ فلنتسامَ بالتسامحِ والاعتذار.

قالَ الإمامُ الشافعيُّ:

قِيلَ لِي قَدْ أَسَى عَلَيْكَ فُلَانٌ ... وَمُقَامُ الْفَتَى عَلَى الذُّلِّ عَارُ

قُلْتُ قَدْ جَاءَنِي وَأَحْدَثَ عُذْراً ... دِيَةُ الذَّنْبِ عِنْدَنَا الِاعْتِذَارُ



الاستئذانُ

وليستْ فقط ثقافةُ الاعتذار، بلْ ثقافةُ الاستئذانِ كذلك تكادُ تكون غائبةً تماماً في هذه المجتمعات، ومن جديدٍ يتصدرُ أصحابُ السُلطة الموضوعَ؛ كونهم أكثرَ مَن يَنتَهِكُ الخصوصياتِ، بحجَّة أنَّ هذا الأمرَ من حقِّهم، فلا البنتُ لها خصوصيةٌ مع والدتِها، ولا الزوجةُ لها خصوصيةٌ مع زوجِها، بل في كثير من الأحيانِ حتى أهلُ الزوجِ وأهلُ الزوجةِ يستبيحونَ خصوصياتِ ابْنِهم وابنَتِهم، والحجَّةُ دائماً نفسُ الحجَّةِ، نحنُ عائلةٌ واحدةٌ، يدٌ واحدةٌ، وجيبٌ

واحـدٌ، ولا تكلفـةَ بيننـا! في اعتقادهم أنَّ احـترامَ الخصوصياتِ والاسـتئذانَ يجعلُهـم يتصرَّفـون كالغرباءِ، فتدخـلُ الأختُ إلى بيت أخيها دونَ اسـتئذانٍ من زوجتَهِ، باعتبارِ أنَّه بيتُ أخيها، وهي ليسـتْ غريبةً، وقدْ تَعْتَبِرُ أنَّ لها حقّاً في هذا البيتِ أكثرَ من زوجةِ أخيهـا! بلْ أحيانـاً قد تتصـرَّفُ بأريحيَّـة تصلُ بها إلـى الدخولِ إلى غرفـةِ نوْمِ أخيهـا، والتفتيشِ في الأغراضِ، فهـيَ من العائلة، وليسـتْ غريبـةً! وإذا اعترضـتِ الزوجـةُ يتهمونهـا بمحاولات التفرقَةِ بينهم، وتشـتيتِ وحدَتِهم، وتفكيكِ تعاضدِهم الأُسري! لا أدري إن كانـوا يعلمـونَ أو لا يعلمون أنَّ هـذه التصرفاتِ فيها مخالفـةٌ صريحةٌ ومباشـرةٌ لتعاليـم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما وردتْ في سورة النُّور عن أخلاقِ الاستئذانِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور: 27]. والمقصـود بـ«تُسَـلِّمُوا عَلَـى أَهْلِهَـا» ليـسَ المصافحةَ باليَدِ، بل الاستئذانَ قبلَ الحضورِ، والحمدُ للهِ نحنُ الآن في عصـرٍ أصبحتْ فيـه الهواتفُ المحمولةُ من ضـروراتِ الحياة، وفي متناولِ الجميعِ، ولم يَعُدْ هناك عذرٌ للزياراتِ المفاجئةِ.

النـداءُ في الآية موجَّـهٌ لجميعِ الذيـن آمنوا لكـي يَمْتَثِلُوا لهذا الأمرِ، ولم يستثنِ أحداً، لا أهلَ الزوجِ، ولا أمَّ الزوجَةِ، ولا أختَ

الزوجِ، ولا غيرَهم، فالكلُّ يجبُ أن يستأذنوا قبل الذهابِ لزيارةِ أي أحدٍ من العائلةِ.

الآيـةُ التـي تليها تـأتي تأكيداً لهـذا الـكلامِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [النـور: 28]، أي لا تدخـلُ في كلِّ الأحـوالِ حتى يُـؤذَنَ لك، لا تعطِ لنفسِـكَ الإذنَ بالدُّخول؛ لأنَّ هـذا ليـسَ من حقِّك، حتَّى إنْ كانَ بيتَ ابْنِـك أو ابنتِك أو أخيكَ أو أختِـك، فالآيـةُ صريحةٌ وواضحةٌ، وهي تشـملُ الجميعَ دون استثناءٍ، بل إنَّ الله تعالى يأمرُنا أنَّه إنْ طلبَ أهلُ البيتِ منَّا الرجوعَ أنْ نرجعَ فوراً دونَ تردُّد كرامةً لنا:

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: 28].

ومعنـى الكلامِ أنَّه إذا امتنعَ أهلُ البيتِ عن اسـتقبالِ الضيْفِ، لأيِّ سـببٍ كانَ، فيجبُ علـى الضيفِ الانصرافُ فـوراً دونَ أن يسألَ عن الأسبابِ؛ لأنه ليسَ من حقِّه معرفتُها، وصاحبُ البيتِ ليـس مجبَراً على أن يوضِحَها، وكما يُقالُ البيوتُ أسـرارٌ؛ فأهلُ البيتِ لابد أنَّ لديهم أسـبابَهم الخاصَّةَ، وهذا من حقِّهم حتى لو كانت هذه الأسبابُ غيرَ منطقيَّةٍ في نظَرِ غيرهم؛ يكفي أنَّها منطقية في نظرهم.

ويبقى دائمـًا أملٌ أنْ تتحسَّـنَ عاداتُنا الاجتماعيَّةُ، وأنْ تَقتَرِبَ أكثرَ إلى فطرةِ الإسلامِ.

وحتى الأمهاتُ والآباءُ في أغلبِ الأحيانِ يَقْتَحِمونَ خُصوصيَّاتِ أبنائهم وبناتِهم بحجَّة أنَّ هذا من حقِّهم، وهو جزءٌ من التربيةِ السليمةِ! صحيحٌ أنَّ الرقابة الأُسريةَ مطلوبةٌ، بل ضروريةٌ، ولكن لها أصولٌ؛ الرقابةُ لا تعني أن تتبَّعَ ابنَك كظِلِّه، وأنْ تتصرفَ معه كالكابوس المرعبِ الذي يلاحقُه طوالَ الوقتِ بحجَّة أنك حريصٌ عليه. الرقابةُ لا تعني أنْ تقومَ بتفتيشِ غرفتِه وأغراضِه بشكل مستمرٍّ أحياناً أمامَه، وأحياناً أخرى من ورائه بحجَّةِ أنك تُربِّيه! أنتَ بهذه الطريقةِ تجعلُه يتنبَّه للأمر، ويعلمُ أنَّ هناك مَن يقوم بالتفتيش وراءَه، وتكونُ نتيجةُ هذا التصرف أنْ يصيرَ الأبناء أكثرَ حذراً في تَخْبِئَةِ أشيائهم الخاصَّةِ، بل قد يطلبونَ مساعدةً من أصدقائهم ليُخبِّئوا لهم أشياءَهم، وفي بعض الأحيانِ لا تكون هذه الاختياراتُ سليمةً، ولا تأتي بنتائج حسنةٍ، ليس هذا فحسب، بل إنَّ تصرفاتِ الأهل هذه قد تقودُ الأبناءَ إلى تعلُّم عاداتٍ غير حميدةٍ كالكذبِ والغشِّ والخداعِ والمراوغة في محاولاتهم للحفاظِ على خصوصياتِهم، وبهذا تتَّسِعُ الفجوة بينهم وبين أهاليهم إلى درجةٍ قد يستحيلُ معها أنْ يندمِلَ هذا الشرخُ العائليُّ. وبعدَ كلِّ هذا نجدُ بعضَ الأهالي يتذمَّرون، ويشتكونَ من كتمانِ وغموضِ أبنائهم وكذِبِهم وتحايلِهم، بدلًا من أن يَتَتَبَّعوا الأسبابَ التي جعلتْ أبناءَهم يَصِلُون إلى هذه الحالِ.

وهنا أريدُ أن أُدلي بدلوي حول هذا الموضوع من واقعِ تجربة شخصيةٍ من خلال علاقتي بابنتي، أفضَلُ طريقةٍ لتعرف أحوالَ ابنِك هي أن تصاحبَه، تعامَلْ معه كصديقٍ، اكسبْ ثقتَه، واجعلْه يطمئنُّ لك، امنحْهُ الإحساسَ بالأمان، واجعلْه يعلمُ أنه لا بأسَ من ارتكاب بعضِ الأخطاء، فكلُّنا نرتكبُ الأخطاءَ والعثراتِ والزلاتِ، ومنها نتعلَّم الدروسَ، لا تحرمْه حقَّه في أن يكونَ له كيانُه المستقلُّ، وحياتُه الخاصةُ، فلا تُلغِ شخصيتَه، ولا تدخلْ غرفتَه دون أن تطرُقَ الباب وتستأذنَ للدخول، كنْ أميناً معه، وكنْ صادقاً معه ومعَ نفسك، فلا تفتشْ أغراضَه لا في حضورِه، ولا في غيابه، وعندها سيفتحُ لكَ قلبَهُ وحياتَه، وستلاحظُ أنَّه لن يُغْلِقَ غُرْفَتَه ولا دُرجَ مَكتَبِه بالمِفتاحِ، وسَتَجِدُ كلَّ أغراضِه معروضةً أمامَك، فلم يَعُدْ يرى حاجةً لكي يخبِّئَها؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ خصوصيتَه أصبحتْ محفوظةً، ولنْ يَنْتَهِكَها أحدٌ.

أعلَم أنَّ هناك مَن يسخرُ من هذا الكلام، ويعتبرُني ساذجةً وحالمةً، بل ومتوهمة لعالم المُثُل الأفلاطوني الذي لا وجودَ له، ولكنَّه واقع أنا عشته ورأيت نتائجه بعيني، وبإمكانِ القارئِ الرجوعُ إلى الحديثِ الخامسِ ليقرأَ تفاصيلَ أكثرَ حول هذا الموضوعِ.

وكما أنَّ للأبناء والبنات خصوصياتٍ، فإنَّ للوالديْنِ خصوصياتٍ أيضاً، وهنا تأتي ضرورةُ أنْ يتربَّى الأبناءُ على

الاستئذان قبلَ الدخول إلى غرفةِ الوالديْنِ، كما جاء في قولِه تعالى في سورةِ النُّور:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩ ﴾

[النور: 58 – 59].

الاستئذانُ ليس ثقافةً فقط، بل هو أدبٌ اجتماعيٌّ، وخُلُقٌ إسلاميٌّ عظيمٌ، أصبحَ يتلاشى شيئًا فشيئًا مع الأسفِ الشديدِ، وأصبحَ كثيرونَ يعتبرونَه تصرفًا متكلفًا ومبالغًا فيه؛ لذلك لا يقومُ به الأصدقاءُ والعائلاتُ؛ لأنَّه يجعلُهم يشعرونَ أنهم يتصرفونَ كالأغراب معَ بعضهم البعضِ، فأصبحت الصديقةُ ترى أنَّه من الطبيعي أنْ تفتحَ حقيبةَ صديقتِها دون إذنٍ منها، والحجَّةُ: نحن صديقاتٌ، ولا رسمياتَ بيننا! وأصبحتْ الأختُ تفتِّشُ أغراضَ أختِها دون استئذانٍ منها، وترتدي شيئًا من ملابِسها والحجَّةُ: نحنُ شقيقاتٌ ولا رسمياتَ بيننا! وأصبحتِ المعلِّمَةُ تفتِّشُ أغراضَ الطالبة دون استئذانٍ، والزميلُ يعبثُ

بهاتف زميلِه دون استئذانٍ، والصديقُ يفتِّشُ في سيارةِ صديقه دونَ استئذانٍ، والموظفُ يفتِّشُ بين أغراضِ زميلِه الموظفِ دون استئذانٍ، وأختُ الزوجِ تفتِّشُ في منزلِ أخيها دونَ استئذانٍ، والطالبةُ تفتِّشُ في دفاترِ زميلتِها دون استئذانٍ، وغيرها كثيرٌ من الأمثلة المعاشةِ في واقعنا، والكلُّ يستعمل نفس الحجَّةِ: نحنُ واحدٌ ولا رسمياتَ بيننا! أضحينا في زمنٍ أصبح فيه خُلُق الاستئذانِ «رسميات!» تُستعمل مع الغرباءِ فقط!

بحسبِ هذه الحالِ أكادُ أجزمُ أنَّ الأغلبيةَ الساحقةَ من المسلمين لا يعلمون أنَّهم مأمورون شرعًا أنْ يغضُّوا أبصارَهم عند زيارةِ أحَدٍ ما في مَنْزِلِه، وألَّا يَجولوا بأَنظارهم في أَرجاء المنزِلِ، يدقِّقونَ في تفاصيله وأركانِه، وأنَّ المسلمَ يجبُ أن يُنهيَ الزيارةَ وهوَ أعمى، وأبكمُ، وأصمُّ؛ بمعنى أنَّه لا يتحدَّث عما رأى وسمِعَ في ذلك المنزلِ أبداً.

الاستئذانُ والاعتذارُ هما خُلُقان يُكتسبانِ بالمحاكاةِ لا بالتنظيرِ والتلقينِ؛ بمعنى أنَّ الطفلَ يَجِبُ أنْ يرى والدَيْهِ يَعتذرانِ، ويَستأذِنان إذا أراداهُ أن يتعلَّمَ كيفَ يستأذنُ ويعتذرُ، وهنا نعودُ إلى مقدِّمة هذا الحديثِ، فالوالدانِ وبشكلٍ خاصٍّ الأبُ، لهما سُلطةٌ ونفوذٌ على أبنائهما، وهذا يجعلُهما لا يتحمَّسان لفكرةِ

أنْ يستأذنا منَ ابنهما، أوْ أنْ يُعلِّماه ثقافة الاعتذار عن الأخطاء باعتذارهما إن أخطآ في حق أحدٍ، وهذا مفهومٌ خاطئٌ لمعنى البرِّ بالوالدين. فالبِرُّ لا يعني أنْ يستبِدَّ الوالدانِ على أبنائهما، وأنْ يعاملوهم كجزء مِن ممتلكاتهم، ويقومون بإلغاء شخصيَّاتهم. ابنُك لهُ شخصيَّتُه المستقلَّةُ، وكيانُه المستقلُّ، ومِن حقِّه كإنسانٍ أنْ تكونَ له خصوصيَّتُه التي لا ينْتَهِكُها أحدٌ، وحياتُه التي لا يستبيحُها أحدٌ، وهذا حقُّه الطبيعيُّ، وليس تمنُّناً وتفضُّلاً من أحدٍ.

فيا أيُّها الآباءُ، ويا أيَّتها الأمهاتُ، اجعلوا لأبنائكم خصوصيَّةً في بعض تفاصيلِ حياتِهم، وقدِّموا لهم النَّصيحةَ دون أنْ تفرضوها عليهم، ولا تجبروهم على آرائكم واقتراحاتكمْ طوالَ الوقْتِ. اسمحوا لهم بارتكاب الأخطاءِ، ولا تتوقعوا منهم أنْ يتصرَّفوا كالروبوتاتِ المبرمجةِ التي تتلقَّى الأوامرَ وتُنفِّذُها بحذافيرها. ليسَ هذا فحسب، فأثناءَ تربيتِكم لأبنائكم أرجو أنْ تتذكروا جيداً أنكم لا تزالون طُلَّاباً في مدرسةِ الحياةِ، ولا زالتِ الحياةُ تعلِّمُكم الدروسَ، وهذا يعني أنكم لستم مَعْصومينَ، وأنكم تَرْتكِبون الأخطاءَ، فعلموا أبناءَكم بأقوالكم وأفعالكم، كالاعتذارِ، أرجوكم اعتذروا عندما تخطئونَ؛ كمراعاةٍ لخصوصيةِ أبنائكم أو خطأٍ في حقِّهم، ولا تعلموهم التكَبُّر عن الاعتذارِ عن الخطأِ

بمواقفكم، فلا تتكبَّروا عن الاعتذار، ولا على الاستئذانِ، نحنُ نعيشُ في زمنِ القبضِ على الجَمْرِ، فلا تُصعِّبوا هذا الأمْرَ على أنفسكم، ولا على أولادكم.

غَفَرَ اللهُ لنا ولكم.

المراجع:

- الألباني (سلسلة الأحاديث الضعيفة) (3/ 635).



في نهايـةِ الحـربِ العالميَّـة الثانية شـنَّتِ الولاياتُ المتَّحـدَةُ الأمريكيَّـةُ قصفـاً ذريّـاً علـى اليابانِ هو الأوَّلُ مـن نوعِـه في التاريـخ، حيـث تـمَّ ضَـرْبُ مُدُنِ هيروشـيما وناجازاكـي بالقنابـلِ الذريَّة في أغسـطس عامَ 1945م. لنْ نَسْـردَ تفاصيـلَ القصَّـة، فهـذا ليـس موضوعَنـا هنـا، وهي موجـودةٌ في الإنترنـت لمَـنْ يُحِبُّ الاطـلاعَ عليها. كانـت النتيجـةُ أنَّ القنابلَ مسحَت المدينتيْنِ مسحاً شاملاً كاملاً، وتسبَّبَتْ في عددٍ كبيرٍ جداً من الضحايا، كما أنَّ التَّسـمُّمَ الإشـعاعيَّ للقنابل تسبَّبَ في انتشارِ أمراضِ السـرطانِ وغيرها من العاهات التي استمَرَّت لعقودٍ، ولم يتمكَّنَ الشعبُ اليابانيُّ من التخلُّص مِن تبعاتها إلى يومنا هذا.

أمَّا عن ألمانيا النازيَّة، فعقِبَ الحربِ العالميةِ الثانيةِ انقسمت إلى دولتيْنِ: ألمانيا الشـرقيَّة الديمقراطيَّة، وألمانيـا الغربيَّة الاتحاديَّة، وتـمَّ إقامةُ جدارِ برلينَ الشـهيرِ بينهمـا، اختلفَ نظـامُ الحُكْمِ بين الألمانيَّتيْن، فقد سـادَ النظامُ الشيوعيُّ الجائرُ على ألمانيا الشرقيَّةِ؛ والـذي بسـببه هربَ مـا يزيدُ عن عشـرةِ آلاف مواطنٍ مـن ألمانيا الشـرقيَّةِ إلى ألمانيا الغربيَّة، لم تتحدِ الدولتانِ إلَّا سـنةَ 1990 عن طريقِ معاهدةٍ عُرِفَتْ باسـم معاهدةِ الاثنيـنِ والأربعَةِ، وهنا أيضـاً يستطيعُ القارئُ أنْ يبحثَ في الإنترنت عن تفاصيل القصَّة.

الشــاهدُ من القصتين أنَّ ألمانيا واليابانَ لم تكونا كما نَعرفُهما اليــومَ، فقدْ أقحــمَ حُكَّام الدولتيــنِ بلادَهما في الحــرْبِ العالميَّةِ، وتســببوا في دمارِهمــا وقَهْرِ شــعوبِهما دونَ أنْ يتحقَّقَ لهم انتصارٌ حقيقيٌّ، خــرجَ الألمانُ واليابانيــونَ من الحربِ منهكينَ يائسـين لا يملكــونَ أيَّ شــيءٍ، لا بيوتــًا، ولا أموالاً، ولا بنيــةً تحتيةً، ولا مؤسســاتٍ، ولا أيَّ شــيءٍ على الإطــلاق، ولكنَّهم أدركــوا أنَّهم يملكــونَ تغييــرَ المســتقبلِ، وأنَّ بإمكانهم تحقيقَ مســتقبَلٍ أفضلَ لأنفســهم وبلادِهم وأنَّ هناك أمــلًا دائمـًا حتى لو اضطرَّهم الأمرُ أن يبــدؤوا من تحتِ الصِّفــرِ، فقدْ عَمِلَ الألمانُ ســاعاتٍ إضافيةً مجانيةً بعد الدوام؛ لكي يُعيدوا إعمارَ بلادِهم، وأعطى المدرِّسون اليابانيُّون دروسـًا للتلاميذِ على أنقاضِ المدارسِ المدمَّرةِ.

والنتيجــةُ نراها أمامنــا اليوم، فقدْ تطــوَّرت ألمانيا، وأصبحت في مصــافِّ الــدولِ المتقدمَــةِ، وأضحــتْ المنتجـاتُ الألمانيةُ في كل المجــالات مِن أفضلِ وأجْــوَدِ الصناعاتِ في العالــم، ويَتَمَتَّعُ المواطنُ الألمانيُّ بكاملِ حقوقِــه داخلَ بلاده وخارجَها، ويحمِلُ جوازاً مِن أقوى جوازاتِ السَّفرِ في العالَمِ.

أمَّا عن اليابان، فقدْ رَكِبَتْ صارُوخَ التَّطوُّرِ، وانطلقتْ دون تَوَقُّفٍ حتى باتتْ تُعرف بكَوْكَبِ اليابانِ. أصبحَ لدينا ثقةٌ عمياءُ في المنتجات اليابانيَّة نُقبل عليها دون تردُّدٍ، أو أدنى شــكٍّ في جَوْدَتِها، نراهم كيف

يَبنون بلادَهم ويطورونها، ونَنْبَهِرُ بهم وهم يُصلِحُون أضرارَ الزلازلِ في غضون أيَّامٍ من وُقوعِها، بينما تملأُ شوارعَنا الحُفَرُ والتصدُّعاتُ لسنواتٍ وعقودٍ دونَ أنْ يقومَ أيُّ مسئولٍ بإصلاحها.

ألمانيا واليابانُ: دولتانِ اختارتا أنْ تَنْأَيَا بأنفسهما بعيداً عن الصراعاتِ والحروبِ والْمُهاتَرات السياسيَّةِ ووضعَتْ حكوماتُهما هدفًا هو بناءُ البلديْنِ والارتقاءُ بالشَّعبيْنِ، والنتيجةُ تشرحُ نفسها للجميع. والدرسُ واضحٌ: الإعمارُ لا يأتي بالحرْبِ والعنْفِ والتحكُّمِ والرغبةِ في السيطرة والاستفرادِ بقيادةِ العالَمِ، بل بالبِناء والرُّقيِّ والتطويرِ، والسيطرةُ على العالَمِ تَكونُ بالسَّلام، وليسَ بالحروبِ، كلُّ الذين حاولوا السيطرةَ على العالَم بالحروبِ لم يتمكَّنوا من ذلك رغمَ كلِّ محاولاتهم، استنزفوا الأنفسَ والأموالَ والمواردَ، نشروا الفِتَنَ ودمَّروا شعوباً بأكملها، ومع ذلك لم ينجحوا، فدائماً تظهرُ دولةٌ ما لتمَثِّلَ قوةً جديدةً تتصدى لهم، ولا زالوا يحاولون، ولكن لن يُفلح أحدٌ في السيطرةِ على العالم، وهذا من رحمةِ اللهِ ولُطْفِه بنا، فلا أحدَ ينفردُ بالسُّلطة على العالم بشكلٍ مُطلَقٍ حتى لا تفسدَ الأرضُ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

لقدْ نجحتْ ألمانيا واليابان في فرْضِ مكانَهما في العالم عن طريق الإعمارِ والسلامِ بعدما خاضتا غمارِ الحروبِ العالميةِ،

وحصدتـا النتائـجَ الكارثيَّةَ من وراءهـا، بمعنى آخَرَ: الشـعوبُ لا ترتقـي بالعنْـفِ، بـلْ بالأخـلاق، والتَّسـامي عـن العُنْفِ هو الرقـيُّ الحقيقيُّ، وما كانَ للإسـلام أنْ ينتشـرَ إلا باللِّين وحُسـن الخلُقِ، ولذلك كان حُسـنُ الخُلق أعظمَ صفاتِ الرسولِ الكريمِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

كما كانَ اللِّينُ من أهم صفاتِ سـيِّدِ الخَلْقِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قالَ تعالـى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

وليسَ اللينُ فقط، بلِ العفوُ والمشورةُ كذلك من مظاهر حُسن الخُلق: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

حُسـنُ الخُلـق هـو منهـجُ حيـاةٍ، ويجـبُ أنْ يكـونَ ديـدنَ الصالحيـنَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وكذلـك مقابلـةُ الإسـاءةِ بالإحسـانِ مـن حُسـن الخُلق، بل إنَّ هـذا الخُلـقَ يؤدي إلى تحسُّـنِ أخلاقِ الطَّـرفِ الآخرِ أيضـًا، وبالتالي تنتشـرُ الفضائلُ وتسـودُ القِيَـمُ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

ويوضِّحُ القرآنُ ماهيَّةَ «التي هي أَحْسَنُ» التي يَدْفَعُ بها المسلمُ:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: 63].

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 134].

ولكنَّ هذه الأخلاقَ ليست سهلةَ المنالِ، ولذلك فهي مِن نصيبِ مَن هم خاصَّةُ اللهِ فقط: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: 35].

الوقتُ كالمال كلاهما مهمٌّ جداً وثمينٌ جداً؛ لذلك يجبُ ألا يضيعَ في المشاحناتِ والجدالِ والتجاذباتِ السياسيةِ والحروبِ، بلْ يجبُ أن يُستَثْمَرَ في البناء والتطويرِ والرُّقيِّ بالشعوب. الحكوماتُ في اليابان وألمانيا أدركوا هذا الأمرَ جيداً؛ استثمروا وَقْتَهم وأموالَهم في بناء دولهم بدلًا من تبذيرِ الأموالِ في صناعةِ الأسلحةِ والصواريخِ لتدميرِ شعوبٍ ضعيفةٍ مغلوبةٍ على أَمْرِها، ذاقت المُرَّ مِن ويلاتِ الحروبِ وجَوْرِ الحكَّامِ.

يقولُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق: 6] هذا هو الإسلامُ: عملٌ واجتهادٌ حتى آخرِ لحظةٍ، ألمانيا واليابان وباقي شعوبِ أوروبا هم مَن طبَّق هذه الآيةَ، نجدُهم في النَّهار يعملون كخلِيَّةِ نَحْلٍ دون توقُّفٍ، أما الشعوبُ العربيةُ فنَجِدُ دولًا كثيرةً منها دائماً تبحثُ عن الأسهلِ؛ يقلِّدون

الجانبَ الليليَّ من الغرب؛ حيثُ البـاراتُ والمُجون والفجورُ والمُتعُ السـهلةُ السـريعةُ، ولا يقتـدونَ بهم في الجانـب النهاريِّ المليءِ بالعملِ والمشاقِّ والصعابِ.

الشعوبُ الإسلاميَّةُ تعيشُ فوقَ مستنقعِ الخيراتِ من المواردِ والثـرواتِ الطبيعيَّـةِ، ومـع ذلك فكثيرٌ منها شـعوبٌ مسـتهلكةٌ وغيرُ منتجةٍ، هي شـعوبٌ تُـوَرِّدُ ثرواتِها إلى الخارج؛ لتعودَ إليها على هيئةِ سـياراتٍ ومصانـعَ وآلاتٍ وأدوات كهربائيةٍ ومعدَّاتٍ إلكترونيـةٍ، وبعد ذلك يَتبَجَّحُ الأغنياءُ في هذه الشـعوبِ البائسـةِ باقتنـاء سـياراتٍ فارهـةٍ لـم يصنعوهـا، ومنتجـاتٍ عالميـةٍ لـم يُنْتِجُوهـا؛ تَّمـت صِناعَتُها في الخارج من موادَّ خـامٍ خرجتْ مِن تحـتِ أقدامِهم، بينما هـم نائمون ينتظـرون قُدُومَها! يـا لَهَا مِنْ مُفَارَقَةٍ! إنَّه لَأَمْرٌ مُضْحِكٌ مُبْكٍ فِعلاً.

إنَّ الإنسانَ هو الثروةُ الحقيقيَّةُ، وإذا استثمرتْه الدولةُ بالشكلِ الصحيحِ، فسـوفَ يكونُ هو مِعْوَلَ البِناء لهـذهِ الدولةِ، اليابانُ لا تملـكُ أَيَّ موارد طبيعيَّةٍ، كمـا أنَّها عبارةٌ عن جُـزُرٍ صَخْرِيَّةٍ تَقعُ علـى خطِّ الزلازل التـي تُصيبُها وتدمِّرُها كلَّ مـرَّةٍ، ومعَ ذلك لا تـزالُ اليابانُ كوكـبَ الحضارةِ والتِّقنيَّـاتِ العاليَـةِ، كلُّ هذا لأنَّ الدولة أدركتْ أنَّ الإنسانَ هو الثروةُ الحقيقيَّةُ التي وجبَ صَوْنها والحفاظُ عليها واستثمارُها كما يجِبُ.

نظرةٌ سريعةٌ إلى أخلاقِ المسلمين تجعلُنا ندركُ السببَ وراء تأخُّرِ الشعوبِ المسلمةِ عَنْ بَقِيَّةِ العالَمِ في كَثيرٍ مما هو إيجابيٌّ. وهُنا لا أَلُومُ الحُكوماتِ فقط، فصحيحٌ أنَّ كثيرًا منها حكوماتٌ ظالمةٌ، ولكنَّ الشعوبَ لا تأخذُ دوْرَ الضحيَّةِ دائمًا، بلْ همْ جناةٌ أيضًا، فكثيرٌ من المسلمينَ غفلوا عن تعاليمِ دِينِهم، فلا يحترمونَ القوانينَ، حتى أبسطَها بدءاً من عدمِ رَبْطِ حِزامِ الأمانِ في السيارةِ.

وكثيرٌ من المسلمين غفلُوا عنْ مُراقبةِ اللهِ لهم وبَصَرِهِ بأَعْمالِهم، فلا يَلْتَزِمون بساعاتِ الدَّوام، ويُغادِرونَ مَقرَّ العَملِ قبْلَ انتهاءِ وقْتِ الدَّوام الذي يُفترَضُ أنْ يكونَ ملتزمًا به.

كثيرٌ من المسلمين في غَفْلَةٍ عن آدابِ الطريقِ التي دعا إليها القرآنُ وسُنَّةُ نَبِيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يَجِدُ الغافلُ أيَّ غضاضةٍ في أن يُلقي بالأكياسِ وعُلَبِ الأكلِ من نافذةِ السيارةِ، ويتجاوزَ إشارةَ المرورِ الحمراءِ إذا وجدَ الطريقَ خاليًا، ويذهبَ إلى الموعدِ بعْدَ ساعةٍ من الوقتِ المتفقِ عليه، ربَّما أكثرُ!

وكثيرٌ منْ طلَّابِ وطالبات المسلمينَ غفلوا عن أهميَّةِ العِلْمِ، وأنَّه كما قال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل: «مَعَ الْمِحْبَرَةِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ»، فنَرى كثيراً من الغافلين لا يَلْمَسونَ كتاباً بعد يومِ تَخَرُّجِهم من الجامعة، وغيرها الكثيرُ من الأمثلةِ التي أنا على ثقةٍ أنَّ القارئ استحضرَها وهو يقرأُ هذه السطورَ.

بالطبعِ هناك استثناءاتٌ، ولكنَّ الأغلبية العظمى من المسلمين جعلوا من هذهِ التصرُّفات القاعدةَ العامةَ مع الأسفِ الشديدِ، وبدلاً من تحسينِ هذه الأخلاقياتِ، تسعى الشعوبُ المسلمةُ إلى استيرادِ الحضارةِ والتكنولوجيا من الخارجِ؛ ظناً منهم أنَّه الطريقُ الصحيحُ للارتقاء والصلاحِ.

إصلاحُ الشعوبِ يبدأُ بإصلاحِ الإنسانِ، فإذا تحسَّنَتْ أَخلاقُ الأفرادِ ارتقتِ المجتمعاتُ، وتوجَّهَ تركيزُ الجميعِ نحوَ التطويرِ والإعمارِ: وبذلك تكونُ السيطرةُ على العالَم والاستحواذِ على مواطِنِ القوَّة فيه.

نَسألُ اللهَ أنْ يُعيدَ أمَّةَ الإسلامِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ كَمَا كَانَتْ.



القرآنُ هوَ الحياةُ، ومَن يَحْيَا بالقرآنِ يَسعدُ، هذا لا يَعْنِي أنَّه سيعيشُ دون ابتلاءاتٍ، ولكنَّه سيكونُ مستعداً لها بإيمان،وقادراً على أنْ يتعايشَ معها بصبْرٍ. كلما كانت التجربةُ أقسى كانَ الدرْسُ أثمنَ والعوضُ من عند الله أَعْظَمَ. وهنا أَخْتِمُ الأحاديث بمقتطفاتٍ من تَجاربي في الحياةِ، أشارِكُها معَ القارئ؛ ولا زالتِ الحياةُ تعلِّمُني. هذا بعضُ مما تعلمتُه من الحياة التي لا نهايةَ لدروسها:

1. أَصحابُ القِيَمِ والمبادئِ مُكرَوهون على الأغلبِ، والسببُ هو الحَسَدُ، إذا كنتَ مستقيماً وصاحبَ مبدأٍ فلا تتوقعْ أنْ يُحِبَّكَ الجميعُ، بلْ كُنْ دائماً مستعداً لمكائدِ المتربِّصينَ.

﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: 82].

﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56].

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: 32].

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: 20].

2. لا تبحثْ عنْ رِضا البَشَرِ، بلِ اسعَ حثيثاً لنيلِ رضا اللهِ تعالى، فإذا بلغتَ رضا اللهِ تعالى، ستنالُ رضا البشَرِ، وإنْ لم تفعلْ فرِضَا اللهِ سبحانه يَكفيك.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: 84].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: 8].

3. لا تُؤذِ أحداً أبداً حتى مَن آذاك، فلَكَ رَبٌّ منتقمٌ جبَّارٌ يراكَ ولا يَنساك، ومِن أسمائه (الحقُّ)، فلا يضيعُ حقٌّ معَ ربِّ الحقِّ، ولو بعدَ حينٍ. قدْ يتأخَّرُ الجبْرُ، ولكنَّه يأتي في النهاية حتى لو تأجَّلَ إلى يوم الحسابِ، لا يتركُك اللهُ أبداً.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾ [مريم: 64].

﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6].

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ [النبأ: 29].

4. الفُرصةُ لا تأتي أبداً لا مَرَّةً ولا مرات، بل ربُّ العالمين يرشدُك إليها.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 25].

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: 23-24].

5. تابعْ مجالَك الأكاديميَّ والمهنيَّ، وواكِبْ كُلَّ جديدٍ فيه، لا تتوقَّفْ عند لحظةِ التخرُّج، فتخرُّجُك من الجامعةِ يعني أنَّك تحصَّلتَ على شهادةٍ جامعيَّةٍ في مجالك، ولا يعني أنَّك انتهيْتَ من التعلُّم، فالعِلْمُ لا نهايَةَ له.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 92].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

6. انظر إلى تَرْتِيبِك للأُمور في حياتِك، أنتَ أعلمُ من غيرك بتصنيفِها إلى أساسيَّات وكماليَّاتٍ ورفاهيَّاتٍ.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 19].

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: 37].

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: 77].

7. اهتمَّ بشئونك الخاصَّةِ، ولا دَخْلَ لكَ بشئون غَيْرِك. أُكَرِّرُ: لا دخلَ لك بغيرِك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: 105].

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: 38].

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: 95].

8. خـذْ جولـةً في الأدبِ العربيِّ بين الحيـنِ والآخرِ، تبحَّر في الشِّعْرِ والعَروض، والتَّشبيهاتِ، والاستعارةِ، والمجازِ، واستمتعْ بروعةِ الفُصحى وبلاغتها.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109].

﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 103].

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [فصلت: 3].

﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 28].

9. صديقانِ إنْ أحسنتَ صُحبتَهُما فسوفَ يُحسنان إليك خاصةً عندما تكبُر ويتركُك الجميع: الصِّحَّةُ، وَالكِتابُ.

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ [البقرة: 195].

﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31].

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 173].

﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا ﴾ [البقرة: 219].

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس: 24-32].

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: 1].

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ [مريم: 12].

10 . سـنَدُك ربُّك، أمانُك ربُّـك، رازِقُكَ ربُّك، حاميك ربُّك، راعيك ربُّك، لا تقولي: أبي، وأخي، وزوجي، وابني، وشهادتي؛ بل: ربِّي ربِّي ربِّي. لا تقولي: سـأُنجِبُ أولاداً كي يَعولوني عندما أَكْبُرُ. أينَ ربُّ العالمين مِن حسـاباتك؟ أليسَ هو المُعيلُ؟ أليسَ هـو الرزَّاقَ ذا القوةِ المتينَ؟ أليسَ هـو مَن يَجِبُ أن تتوكَّلي عليه دونَ غيرِه من سـائر خلقه؟ لا تَسـتنِدِي على مَـن عندما يترُكُك، يعلَمُ الناسُ أنكِ صرتِ ضعيفةً لا سَـنَدَ لك، فيستبيحونَ أذِيَّتَك، بـلِ اسـتندي على الحيِّ الـذي لا يموت، والـذي لا يترُكُك، بل أقـربُ إليكِ مـن حَبْلِ الوريـدِ. إنْ جارَ عليكِ الزمـنُ لن تجدي غيـرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحيطـكِ برعايته منذ ولادَتِك، ويسـخِّر لكِ جنودَه في السماوات والأرض؛ لخدمَتِك.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37].

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [الأحزاب: 3].

﴿ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: 38].

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: 58].

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: 217].

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المجادلة: 10].

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: 9].

﴿ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: 62].

11. الحياءُ والحشمةُ لا يعنيانِ انعدامَ الشخصيَّةِ؛ فالتي مشتْ إلى النبيِّ موسى على استحياءٍ ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص: 25] هي نفسُها التي قالت: يا أبتِ استأجره ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

12. مُنتهى القوَّةِ أنْ يكون لديك القدرةُ على تدمير شخصٍ ما؛ ولا تفعَلُ.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269].

13. المعركةُ التي تنتصرُ فيها ثمَّ لا تستفيدُ شيئًا من هذا الانتصارِ، لم يكنْ لها داعٍ من الأساسِ.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: 25].

14. لا توجدُ شعوبٌ راقيةٌ، بل توجدُ شعوبٌ آمنةٌ مطمئنةٌ ضامنةٌ لعدمِ زوالِ النعمةِ، واستمرارِ الأمنِ والأمانِ، فإذا زالَ عاملُ الأمْنِ والأمانِ ظهرَتْ غريزةُ حُبِّ البقاءِ واضحةً وجليّةً في الشعوب. هذه الغريزةُ تجعلُ الشعوبَ تتصرَّفُ بطريقةٍ بدائيةٍ قد تصلُ إلى مستوى الهمجيَّةِ الحيوانيَّةِ في الصِّراعِ من أجلِ البقاءِ. وهذا ما فعلَه جنديُّ اللهِ الأصغرُ (كورونا) فيمَن ظننَّا لفترةٍ من الزمن أنهم أهل الحضارةِ والرُّقيِّ.

﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: 4].

15. (اللَّمَّةُ) لمَّة القلوبِ، وليست لَمَّةَ الأجسادِ، فلا مكانَ تجتمعُ فيه الأجسادُ أكثرَ من المقابر! إذا أردت أنْ تجمعَ شمْلَ عائلتك، فاعمَلْ على جَمْعِ القلوبِ أولاً، وبإذن اللهِ سيؤلِّف اللهُ بين قلوبهم، حتى وإن كانوا مُتفرِّقين في بلادِ الله، وسُيسهِّل اللهُ تعالى بعد ذلك اجتماعهم في مكانٍ واحد، لا تُجْبِرْ عائلَتَك على الاجتماعِ في مناسبةٍ ما بحجَّة لمِّ الشَّملِ؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ يأتي بنتائجَ عكسيَّةٍ، ويُذكِي الضغائنَ. ادعوا لهم بظَهْرِ الغيْبِ، واترُكْها للهِ سبحانه؛ هوَ وحدَه القادرُ على ذلك.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: 63].

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103].

16. تذكَّرْ أنْ تُرَدِّدَ الأذكارَ، وتَقرأَ ما تيسرَ من الذِّكرِ الحكيمِ، ولو بضعَ آياتٍ، عندما تكونُ في مكانٍ ما خاصةً إذا كانتْ هذه المرةُ الأولى التي تتواجدُ فيها هناك. قد تَكونُ هذه المرَّةُ هي أولَ مرةٍ تشهدُ فيها تلكَ البقعةُ من الأرضِ تَرتيلَ القُرآن، المحظوظُ حقًا هو مَن تُتاحُ له الفرصةُ أنْ يفعَلَ هذا الأمرَ، وهو في بلادٍ غيرِ

المسلمين؛ حيثُ تكادُ لا تشهدُ الأرضُ هناك أيَّ أذكارٍ أو تراتيلَ على الإطلاقِ، هذهِ الأرضُ سوفَ تُخبِرُ بكلِّ أخبارِها يومَ القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 4- 5].

17. أختي العزيزةُ: أنتِ فارسُ أحلامِك، أنتِ الشخصُ الوحيدُ الذي يستطيعُ أنْ يحقِّقَ لك كلَّ أحلامِك بتوفيقٍ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. السيدةُ خديجةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كانتْ تاجرةً (سيدةَ أعمالٍ) قبلَ أنْ تتزوجَ الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أيْ أنَّها لم تنتظرْ حتَّى تتزوجَ لتبدأَ مشوارها في الحياة، بلْ كوَّنت نفسَها، ووسَّعت تجارتَها، وصارتْ من أصحابِ الأموالِ في قريشٍ. وحتى عند حصارِ الشِّعْبِ، عَرَضَ أسيادُ قريشٍ على السيدةِ خديجةَ أنْ تبقى خارجَ بني هاشم؛ كي لا يشمَلها الحصارُ، ولكنَّها أبتْ وأصرَّت على البقاءِ معَ زوجِها وعائلتِها. كانتْ لها قيمةٌ وأهميَّةٌ في شخصِها، في نفسِها، في ذاتها وليس لأنها زوجةُ فلانٍ. اجعلي لنفسِك قيمةً وأهميةً لأنَّك أنتِ، وليس لأنَّك ابنةُ فلانٍ أو زوجةُ علَّان. زوجُك شريكُ حياتِك، وليسَ ماردَ المصباحِ الذي سيحقِّق لك أمنياتك. كوني خديجيَّةً: اسعَيْ، واعملي، وأثبتي وجودَك لأنك مسلمةٌ مأمورةٌ بالعمل، أي أنَّه فرضٌ عليك وليس اختياراً أو تطوعًا.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [سبأ: 11].

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: 13].

﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: 97].

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: 9].

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: 55].

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴾ [النبأ: 11].

18. لا تستهزئْ بأحدٍ حتى إنْ كانَ عدوّك؛ لأنَّ الاستهزاءَ جهلٌ، ولا أعتقدُ أنَّك تريدُ أنْ تكونَ جاهلاً.

﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ ﴾

[البقرة: 67].

19. المرأةُ مُستضعفَةٌ، وليستْ ضعيفةً، ولكنَّها تشرَّبَت فكرةَ أنَّها ضعيفةٌ، وعاشَتْها، وصارتْ ضحيَّتَها ثمَّ أورثَتْها لابنتِها؛ لتتحوَّلَ الضحيَّةُ إلى جانٍ، وتستمرَّ المأساةُ لأجيالٍ وأجيال؛ واللهُ وحده أعلمُ بما سيؤولُ إليه الأمرُ.

﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء: 75].

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 98].

20. آن فرانـك، مراهقةٌ من عائلةٍ يهوديةٍ كانت ضمنَ ضحايا محرقةِ اليهود (هولوكوسـت) في ألمانيـا، كانت تكتبُ مذكراتِها في الفترةِ التي كانت الأُسْـرَةِ تحاولُ الاختفاءَ والهروب منْ قبضةِ الألمـان، تـمَّ العثورُ على مذكراتِها، ونُشِـرتْ في كتـابٍ، كما تمَّ تحويلُهـا إلى عدةِ أفلامٍ سـينمائية، ووُضعت ضمـنَ العديدِ من المناهجِ الدراسيَّة في أوروبا وأميركا، كانتْ حياتُها وحياةُ عائلتِها مهددةً بالقتلِ في أيِّ لحظةٍ، ومعَ ذلك اسـتثمرَتْ وَقْتَها، وأصرَّتْ على توثيقِ كلِّ الأحداث في مذكراتِها؛ لتتركَها للعالَمِ بعدَ وفاتِها: مـا حُجَّتُكَ يا مَن تَجْلِسُ مسـتريحـًا في منزلك وتسـتمتعُ بالأمْنِ والأمان والسَّـلام؟ ماذا تركتَ للعالم مِن بعـدِك؟ ضعْ بَصْمَتَك في العالم؛ فإنَّك إنْ لم تزد شيئـًا للعالَمِ، فأنت (زائدٌ) عن حاجتِه، وقـد تكونُ عالـةً عليه. خلقَك اللهُ (إنسـانـًا) أي خليفـةَ اللهِ على الأرض، وهـذا يعنـي أنَّ إعمارَ الأرضِ هو واجبـك، لوْ كانَ اللهُ يريدُك أنْ تتكاسَلَ ولا تعملَ، لكانَ خلقَكَ كائنـًا آخرَ غير البشرِ،

واختصرَ عليك الطريقَ. أنتَ تتربعُ على قمَّةِ هرمِ الكائناتِ كلِّها، فلا تنزلْ إلى مستوياتٍ دونَ ذلك!

﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد: 12].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44].

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

21. افرحْ لنجاحِ ابنِك، ولا تغضبْ إن تحصَّل غيرُه من الطلبةِ على درجاتٍ عاليةٍ مثلَه، فالنَّجاحُ لا يكونُ بالاستفرادِ بالساحةِ، إنما يكونُ بالتميُّزِ وَسَطَ الجموعِ، والأمرُ في جوهرِهِ منافسةٌ شريفةٌ، ولكل مُجتهدٍ نصيبٌ، فلا تجعلْها حَرْبًا.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: 26].

22. كلُّ ابـنُ آدمَ خطّاءٌ، وهذا يشـملُ كلَّ مَن لهم سُـلطةٌ منْ أيِّ نوعٍ، فكلُّهم أبناءُ آدمَ؛ إذنْ كلُّهم يخطئونَ مثلما باقي أبناءِ آدم يُخطئـون، وبما أنَّهم أبنـاءُ آدم؛ إذنْ فأخطاؤهم هي نفسُ أخطاءِ باقي بني آدم، فمِن الممكنِ جداً أنْ يفتريَ المدرّس على تلاميذه كذبـًا، ومِن الممكن أيضـًا أنْ تكيدَ المعلِّمة لواحدةٍ من طالباتِها وتُلَبِّسُـها تهمـةً هي بريئةٌ منها، ويسـتوقِفُني هنا سـؤالٌ لا يسـألُه إلا جاهـلٌ: (وهـل يُعقلُ أنْ تَكذِبَ المعلمـةُ؟)، نعم يُعقلُ جداً، أليسـتْ من بنـي آدم، أمْ أنَّها أصبحت مـلاكـًا مُنزهـًا ومعصومـًا بعد أنْ صارت معلمةً؟!

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: 16].

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل: 34].

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: 45].

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٥١ ﴾ [إبراهيم: 51].

23. توقَّفْ عن قول: إنَّ أكبرَ عيوبِك هي طيبَتُك وتواضعُك؛ الطيبةُ والتواضعُ ليسـتا عيوبـًا، فلا داعي لأنْ تكذِبَ الكذبةَ على نفسِك وتصدِّقَها، كفاك اختلاقـًا لأعذارٍ واهيةٍ كي تبررَ أخطاءَك،

تحَـلَّ بالشـجاعةِ وواجِهْ نفسَـك بعيوبك الحقيقيَّـةِ، لكي تعرفَ كيـفَ تتخلصُ منهـا، عندما ينصحُك أحـدٌ بالابتعـادِ عن رفاقِ السوءِ ضعْ في اعتبارِكَ أنَّ هناكَ احتمالاً أنْ تكونَ أنتَ أحدَ هؤلاء السيئِين، ويجبُ على الصالحينَ الابتعادُ عنك وعدمُ مرافقَتِك.

كنْ صادقًا معَ نفسِك قبلَ أنْ تَطْلُبَ من الآخرين أنْ يصدِّقوك، وتذكَّرْ أنَّ النفسَ اللوَّامة أفضلُ من النفسِ الأمَّارةِ بالسوء.

تأنيـبُ الضميـرِ رغمَ قسـاوتِه في بعض الأحيـانِ إلا أنَّه يعملُ كوازعٍ ورادعٍ للإنسـان يساعدُه على كبحِ جماحِ نفسِه، والتوقُّفِ عن تصرُّفاته الرَّعناء.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: 1-2].

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22].

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: 53].

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

24. إذا مـدَّ اللهُ في عُمرِك، ولاحظْـتَ أنَّه يعطيك ولا يبتليك، فراجِعْ أخلاقَك وعباداتِك وتعامُلَك مع الغيرِ، فقدْ يكونُ ما أنتَ فيـه هو إملاءٌ وليس عطاءً، الإملاءُ هو فرصٌ يعطيها اللهُ سـبحانه للظَّلَمَـة والجبابـرةِ والطغـاةِ والمسـتبدين؛ علَّهـم يتوبـونَ عن غيِّهم، ويعودون إلـى طريقِ الحقِّ قبلَ أنْ يأتيَهم عقابُ اللهِ الذي

يجعلُهـم يدفعون ثمنَ كلِّ ما اقترفوه دفعـةً واحدةً، حتى إذا جاءَ يومُ الحسابِ لا يقولونَ: (لوْ مددْتَ في عمرنا يا الله لتُبنا!) لاحظ أنَّ حفظـةَ القرآنِ يتوفَّوْن في سـنٍّ صغير، بينمـا أصحابُ رؤوس الأمـوالِ وأصحـابُ المناصـب، بل حتَّـى بعضُ أوليـاءِ الأمور المسـتبدينَ يمُدُّ اللهُ في أعمارِهـم، ويجعلُهم أكثرَ سُـلطةً ومالاً، هذا الكلامُ يشـملُ الأفرادَ والمجتمعاتِ والـدولَ كذلك؛ يُملي له حتى إذا أخذَهُ لم يُفلِتْه.

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186].

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران: 178].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحج: 48].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: 58].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165].

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: 3].

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: 42].

25. إلى أولياء الأمور والأزواجِ الذين يُردِّدون باستمرارٍ عبارةَ (عندما أقولُ أنَا: (لا)، يعني: لا): إذا أرادَها اللهُ سبحانه أنْ تكونَ (نعم)، فسوفَ تكونُ (نعم)، على جذعِ أنوفكم، وسيسري أمرُ اللهِ عليكم وأنتم صاغرون؛ هي مشيئةُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وليست مشيئتكم، فانتهوا عن هذه العقليَّة الفرعونيَّة التي لسانُ حالها (أنا ربُّكُم الأعلى)!

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: 30].

26. إذا كنتَ تمتلكُ المالَ الكافيَ لشراء منتجٍ ما، ولكنَّك اخترتَ عدمَ شرائه رغمَ كلِّ المغرياتِ وصيحاتِ الموضةِ، وضغوطِ تقليدِ الأصدقاءِ، وذلك لأنك ببساطةٍ لا حاجةَ لك به، فاعلمْ أنك تجاوزْتَ مرحلةَ الخطرِ فعليًا، وبدأتَ تسيطرُ على نفسِك. اجعلْ قرارَك باقتناءِ شيءٍ ما، أو عدمِ اقتنائه ينبعُ من مدى احتياجِك له، لا مِن قدرتِك الماديةِ على اقتنائه؛ أنت مَن يتحكَّم في المادة لا العكس.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7-10].

27. قـوَّةُ الإيمانِ تأتي بالتدريج، عندما تحوَّلتْ عصا موسـى إلـى حيَّـة لأوَّل مرةٍ خافَ وركضَ هاربـًا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمـل: 10]. ثمَّ أصبـحَ بعدهـا أكثرَ جلـداً وقـوةً ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: 67]، وأخيـراً انتهى به الأمرُ إلى مرحلةِ اليقين التامِّ بفرج الله ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 62].

28. عندمـا يرزقُـك اللهُ فرحةً ما، كفرحة التخـرُّج، أو فرحةِ مولـودٍ جديـد، أو فرحـةِ الحصـولِ علـى وظيفـةٍ، لا بـأسَ من الاحتفـالِ بالأمر، وإقامة الحفلاتِ والولائم، ولكن لا تنسَ قبلَ ذلـك أنْ تسـجدَ شـكراً لله، لا تجعـلِ النِّعمة تُلهيك عـن المُنعم الـذي رزقَك إياها من غير حولٍ لك ولا قوَّةٍ، لا تألَف النِّعَم؛ كنْ دائمـًا من الذاكرين الشاكرين الحامدين.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[يونس: 58].

﴿نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفرقان: 18].

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: 19].

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: 19].

29. الحقيقةُ المُطلقةُ الوحيدةُ في الوجودِ هي الذاتُ الإلهيَّةُ، وما عداها متغيراتٌ تحكمُها ظروفُ المواقفِ ومجرياتُ الأحداثِ، ولذا فالأحكامُ فيها نسبيَّةٌ وليستْ مُطْلَقةً.

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [سورة الإخلاص].

ولا تزالُ الحياةُ تعلِّمُنا، فكلَّما طالَ بنا العمرُ اكتسبنا خبراتٍ جديدةً، وهكذا الحالُ إلى أنْ نلقى وجْهَه الكريمَ، لا أحدَ يكبرُ على الحياة، لذلك لا تدخلْ في صراعٍ مع الزمنِ؛ لأنك لنْ تستطيعَ أنْ تهزمَه. تصالحْ معَ الزمنِ لتستطعِمَ الحياةَ، وتعيشَ في هناءٍ.



بدايةً أريدُ أنْ أحمدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنه ألهمني لفكرةِ هـذا الكتابِ، فكلُّنا نقرأُ القـرآنَ ونختِمُه عدَّةَ مراتٍ، وبالتأكيدِ فإنَّ هذا التكرارَ يقودُنا إلى اسـتخلاصِ العِبر والعظاتِ والـدروسِ المختلفةِ، هذا أمرٌ جميلٌ، والأجملُ أنْ نشـاركَ هذه الأفكارَ مع غيرنا حتى نُفيدَ ونستفيدَ.

وقدْ قادني هذا الأمرُ إلى أن أتَبَنَّى عادةً جديدةً، وهي أنْ يكونَ بجانبـي دفـترٌ في كلِّ مـرةٍ أقـرأُ القرآنَ حتـى أكتبَ الأفـكارَ التي أخـرجُ بها من كلِّ صفحةٍ، أو سـورةٍ، أو آيةٍ، لقد سـاعدتني هذهِ الطريقـةُ على قـراءة القرآنِ بتركيزٍ أكثرَ من السـابق، وللهِ الحمدُ، كما ساعدتني على تحليلِ المعاني والأفكار في عدَّةِ سورٍ وربطِها بواقعِ الحياة التي نعيشُها اليومَ.

القرآنُ الكريمُ منْ أعظمِ نِعَمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علينا، فهوَ الملاذُ فعـلاً، وهـو المؤنـسُ والرفيقُ الحقيقـيُّ الذي يشـاركنا وِحدتنا ولحظـاتِ تعبُّدنا وتقرُّبنا من الله تعالى، هـو بحرٌ غنيٌّ بفيضٍ من المعاني التي تنتظرُ مَن يستكشِفُها، ويخرجُ بها إلى العالم، إنه لأمرٌ مؤسفٌ أن يكونَ بين أيدينا هذا الكنزُ ونهملُه؛ القرآنُ نعمةٌ، وربُّ

العالمين أمرنا بحُسن جِوار النِّعَم؛ لأنَّ قيدَها الشكرُ، ولأنَّها إنْ زالت لا تعودُ!

اللهمَّ لا تحرِمْنا لذَّة مناجاتِك، وتولَّنا برحمتِك يا ربَّ العالمين.

نحمدُ اللهَ أننا نعيشُ في عصرِ المعلومات، وأنَّ المراجعَ متوفرةٌ، وبالإمكانِ الحصولُ عليها بسرعةٍ وبالمجانِ، فكلما استعصى علينا فهْمُ معنىً أو كلمةٍ نستطيعُ بكلِّ سهولة أنْ نجدَ العديدَ من المراجع التي تشرحُها، كما أنَّ هذه المراجعَ متنوعةٌ، فهناك كتبٌ، ومقالاتٌ، وفيديوهات جديدةٌ وقديمةٌ، ولكنْ هنا أيضًا علينا الحذرُ؛ فقدْ تكونُ بعضُ هذه المراجعِ غيرَ موثوقةٍ.

بفضلِ اللهِ أصبحَ الآن الوصولُ إلى المشاهيرِ من علماءِ الدين أمراً أكثرَ يسراً من السابقِ، وباتَ بالإمكان متابعةُ يوميَّاتهم عبرَ وسائل التواصل الاجتماعيِّ المختلفةِ، وأنْ نشاهدَ حلقاتِهم، ونجتهدَ في قراءة المزيد حولَ الموضوع.

بالرغم منْ كلِّ الصعوباتِ التي نواجِهها، إلَّا أنَّ مشاهدةَ نتائج مجهوداتنا أمرٌ ممتعٌ جداً، ويغمرُنا بالسعادةِ والتفاؤلِ؛ وإنَّ شعورنا بأنَّنا نخدمُ ديننا لا يمكنُ أن يوصفَ، عندما قرأتُ مسودةَ الكتابِ غمرتني السعادةُ، وحمدتُ اللهَ سبحانه الذي جعلَنِي أقومُ بشيءٍ لديني، فهذا واجبُنا تجاهَ دينِنا، وهذا حقُّه علينا.

الجميـلُ في كتابِ الله أنَّه معجزةٌ فعلاً، وأننا في كلِّ مرة نقرؤوهُ نستشفُّ معانيَ جديدةً، وفي بعض الأحيانِ يرى بعضُنا الآيةَ نفسَها من منظوراتٍ متعددةٍ، فاختلافُ الرأيِ رحمةٌ، وليس عداوةً كما يظنُّ البعـضُ؛ لذلك عندما أتحدَّثُ عن أفـكاري، فمِن الطبيعيِّ أنْ أجد مَن يشاركني الرأيَ، ومَن يخالفُني إياه، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ جداً، ودليـلُ تطوُّر وحضارةٍ، ولكـنْ أن يعاديَني البعضُ لمجرد أنَّهـم يختلفونَ معي، فهذا هو الجهـلُ بعينه، هذا الكتابُ يوضِّحُ أنَّ أفـكاري ليسـت ارتجاليـةً، ولم تـأتِ من فراغٍ، بـل هي نتاجُ قراءةِ القرآن، وتمحيصٍ لمعانيه بما تأتَّى لي من مراجعَ ومصادرَ حسب إمكانياتي المتواضعة.

مَـن يريدُ أن يناقشَـنِي، فالبـابُ مفتوحٌ دائمـًا للحـوار الراقي المحـترِم، وليس التبلِّي والقذفِ خلفَ ظهـري! المجالُ مفتوحٌ أمـام كلِّ مَن يختلفون معـي في الرأي لكي ينشـروا كُتبـًا يفنِّدون فيها أفكاري بالحُجَّة والبرهان من مصادرَ موثوقةٍ، وليس بالسبِّ والطعـنِ والشـتمِ، إلا إذا كانَ تأليفُ الكُتُبِ أمـراً صعبـًا عليهم، فذلك موضوعٌ آخرُ!

أنـا متأكدةٌ أني سأسـتنبطُ معانيَ جديدةً من نفـسِ الآياتِ التي تحدثْـتُ عنها في هـذا الكتابِ، مَن يدري قد يسـخِّرني الله تعالى

لتأليـفِ كتـاب آخرَ أشـاركُ فيـه بمواضيـعَ جديدةٍ، وهـذهِ ميزةُ القـرآنِ الكريـمِ: صالحٌ لكلِّ زمـانٍ ومكانٍ، ولا يخلـو من العِبَر والعظات، وعندما نقرأُه بخشوعٍ نشعرُ أنَّه يخاطِبُنا بشكلٍ مباشرٍ، وكأنَّه يتحدَّثُ معنا.

هذا قرآنُنا، وهذا دينُنا.

وهذا هـو نتاجُ أفكاري التـي أحببتُ أنْ أشـاركَها مع القارئ وكلِّ مَـن يحيطـونَ بـي، هـذه هـي التـي يُسَـمِّيها بعـضُ الذين ينتقدونني: تَربيةَ عزّة!

